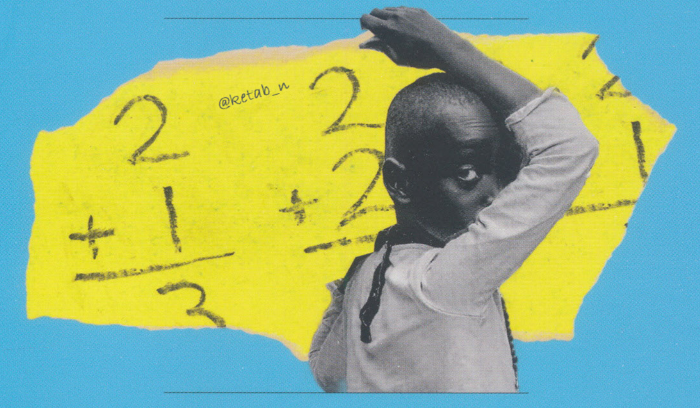




نغوغي وا ثيونغو



لا تبكِ أيّها الطفل

ترجمة: أمينة الحسن

نغوغي وا ثيونغو

لا تبكِ أيّها الطفل

ترجمة أمينة الحسن

لا تبكِ أيّها الطفل

لا تبكِ أيّها الطفل

تأليف: نغوغي وا ثيونغو
ترجمة: أمينة الحسن

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-25-839-1



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-4840928
التصنيف العمري: +17

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Weep Not Child © Ngugi wa Thiong'o, 1964



مقدمة

بقلم بِن أوكري

ينهل الأدب الإفريقي من ثلاثة أنهار عظيمة: الغيبي، المنظور؛ والشفهي وكذلك الأسطورة؛ والواقع والتراث الشفهي. ويمكن القول إن الغيبي هو المصدر الرئيسي للأدب الإفريقي. يظهر ذلك بوضوح في وجود الأسطورة وكيف تلعب الأسطورة دورا مناظر للواقع الاجتماعي. يشكل هذا المصدر الغامض خلفية أعمال آموس توتشولا: مدمن خمر النخيل، وتشينو أتشيبي: أشياء تتداعى، وورلي سوينكا: الموت وفارس الملك، وكامارا لاي: الطفل الإفريقي. وهو موجود بالطبع في كل الأساطير، والحكايات، والمعتقدات الشعبية، والأغاني التي تشكل الوعي الإفريقي.

إن الكتّاب النشطين في الخمسينات والستينات تدوزنت آذانهم على نوعين من الموسيقى: العالم الخفي للتقاليد والأساطير، وعالم الاستعمار القاسي. في الأوقات السعيدة يغني الإنسان أغانٍ للروح. لم يظهر الأدب الإفريقي الحديث كاحتجاج ضد الاستعمار، بل إن الاستعمار جاء بتغيير ما، واهتمام خاص بالتقدم الطبيعي للأدب من وضع إلى وضع آخر. في الأوقات الصعبة نغني أغاني أزمان الرّدى، ولكن لا ينبغي أن تؤخذ أغاني أزمان الرّدى كنموذج.

لأنه حتى في الأوقات الصعبة يظل حاضرا في النفس أفراحها، وبهجتها، وحريتها، وجمالياتها.

كل من أغاني أزمان الرّدى والأغاني الروحية واضحة في لا تبك أيها الطفل، فهي من الروايات الرمزية التي تنبثق من فنان ينصت إلى ينبوع التقاليد، والأوضاع المضطربة في عصره. المفارقة تكمن في بدايات نغوغي ككاتب. هناك تصور بأن الرواية الأولى للكاتب تمثل الشكل الأوليّ الذي يحتوي على الموضوعات التي تشغل فكر الكاتب والتي قد تستمر بقية حياته الكتابية. في رواية العقل والعاطفة تزاوج جين أوستن بين موضوعات الانقسام، والغراميات، والطبقية، والتي شغلت معظم رواياتها. إرنست همنغواي في أولى رواياته: الشمس تشرق أيضا وموضوعاتها عن الرواقيّة والعنف والطبيعة، تلك الموضوعات التي لم تفارق أعماله الأدبية التالية. وتشينو أتشيبي في: أشياء تتداعى طرح أفكارا عن الثقافة والعائلة والتقاليد، وهي أيضًا تظهر جلية في أصل أعماله. نتأمل تلك البدايات التي تشكل الجذور التي تصبح شجرة أو غابة من الموضوعات. لكن في حالة نغوغي تمكنت الأحداث من صناعة أمر مختلف، لقد بدأ نغوغي الكتابة على نحو غير متوقع وبطريقة سحرية أيضا. حينما كان شابا في جامعة ماكيري قابل محررا في مجلة، وذكر له نغوغي أنه كتب قصصا قصيرة مُظهرًا اهتمامه بها. ثم كان على نغوغي الذي لم يكتب شيئا في الواقع أن يقوم بكتابة قصص، إنه نوع من الاحتيال على الذات يؤثر في قدر المرء. ثم كتب نغوغي قصة ونُشرت، ومن هِنا بدأت حياة نغوغي الكتابية. من المفيد أن نغوغي بدأ بكتابة القصة القصيرة فهي قاعدة مثالية للتدرب على كتابة الأعمال الروائية الطويلة. لأن القصة تحتوي على مصفوفة من الخيالات المصغرة تدرب الكاتب على حرفة

السرد. إنه شكل يتطلب الإصرار، ذلك الإصرار والوضوح والإيجاز ظهر في رواية لا تبك أيها الطفل. الرواية تميل بيقينها وتوازنها وتُبحر متمكّنة من هدفها، بوتيرة ثابتة وهادئة، وغاية راسخة. من النادر أن تنشر رواية أولى بهذه المثالية وكان نغوغي يبلغ الثمانية والعشرين من عمره أنذاك.

لا تبك أيها الطفل أعلنت مولد نغوغي ككاتب. قفزته في الأدب تشكلت بالكامل مثل أثينا من جمجمة زيوس. ولكن لا تبك أيها الطفل لم تكن رواية نغوغي الأولى بل عمله الثاني ولكنها نُشرت أولا. ومع ذلك (فهي ترمز إلى أسلوبه في العمل كما ننظر إلى الروايات الأولى). قبل أن يكتب لا تبك أيها الطفل كتب العديد من القصص وواجه تحدي كتابة رواية عنونها النهر الذي بينهم والذي منح لا تبك أيها الطفل ضمان أنها كُتبت بعد التدرب على الأداء. إن رواية لا تبك أيها الطفل تُعد بداية مثالية لنغوغي كروائي. فهي تجمع بين قصة المراهقة والعنف السياسي وحكاية حب ضمنية. ويجمع بضربة واحدة المواضيع الرئيسة في أدب ذاك الزمن.

كما أنه كتب الرواية قبل أن يصبح نغوغي وا ثوينغو، حيث نشرها باسم جيمس نغوغي. ليس من الواضح منذ متى غير إسمه بعد النشر باسم جيمس، لكن روح التغيير بالفعل سكنته. في كتابته رواية لا تبك أيها الطفل كتب اسمه نغوغي وا ثيونغو، بعدما كان اسمه جيمس نغوغي في روايتين فقط، ومع نشره حبة قمح أصبح نغوغي وا ثوينغو أمام العالم، متجدّدًا في الثقة والمكانة. لكنه كان دائما نغوغي وا ثيونغو، حتى في رواية لا تبك أيها الطفل التي أصبحت تُقرأ ومعها اسمه الجديد كمؤلف.

في رواية لا تبك أيها الطفل كان فن نغوغي في أنقى صوره. في مخيلتي أرى نغوغي الكلاسيكي وروايته روميو وجولييت، حكايته عن حُب الشباب

الذي يواجه معارضة الأُسرتين، وعالم يغلي بالعنف والظلم. إنه الشاب نغوغي القريب من مزاج الشباب نفسه. ستجلب الحياة نغوغيين آخرين، المتحول الماركسي، الراديكالي، والناشط ضد الفساد السياسي والسجين السياسي، هؤلاء سيجلبون حبكة غنية للعمل، روايات ذات أهمية كبيرة وأهمية سياسية مثل حبة قمح، والتي يعتبرها كثيرون من أروع أعماله، أو بتلات الدم التي استلهم فيها من زيارته لروسيا محاكاة الرواية الروسية، حيث جلب للرواية الإفريقية ضرورة جديدة وغضبا سياسيا، وفي روايته الغراب الجذاب وسّع مجاله ودمج الواقعية السحرية مع اهتماماته الفنية والاجتماعية المميزة. كتب نغوغي أيضا المسرحيات والكثير من المقالات المؤثرة في الدعوة إلى راديكالية جديدة في الأدب الإفريقي، والعودة إلى اللغات الإفريقية كأساس في التعبير الإبداعي. وأنجز الكتاب الأول من سيرته: الأحلام في زمن الحرب. انتقل نغوغي إلى المنفى بعدما خرج من السجن، وعاش فترة في لندن ثم استقر في أمريكا، كأستاذ للأدب في جامعة كاليفورنيا-اريفن. إلا أن كتابة رواية لا تبك أيها الطفل سبقت كل تلك الأحداث. بمعنى ما، فإن كل النغوغيين فيها يُعدون أشكالا بدائية لشخصيات نغوغي المستقبلية، بذور راديكاليته وشيوعيته التي حملها إلى اللغات الإفريقية.

لا تبك أيها الطفل رواية عن صبي اسمه نجوروغي نشأ في زمن تمرد الماو ماو الذي اجتاح كينيا في الخمسينيات وأوائل الستينيات كحركة سرية لمقاومة الاضطهاد الاستعماري، وعن سعي نجوروغي للتعلم وحب مويهاكي ابنة معذّب عائلته. إنها رواية فريدة من نوعها في الأدب الحديث لدمجها بين عدة أجناس أدبية. إنها رواية عن التعليم وعن الماو ماو من جهة، ومن جهة أخرى عن نقطة تلاقي التقاليد والحداثة، حول الأساطير القديمة في مواجهة الحقائق

المعاصرة. تتخللها العديد من الثنائيات؛ الآباء والأبناء، الأغنياء والفقراء، السود والبيض، التعليم والتدريب الحرفي، القرية والمدينة، داخل البلاد وخارج البلاد، المنفى والجذور، الوهم والتجربة، كل هذا أعطى الرواية تعقيدا متعدد الطبقات. هي رواية بسيطة ومباشرة في صفحات قليلة نسبيًّا وتنقسم إلى قسمين قصيرين يتضمنان فصولا فرعية. إذا أنصتَّ بعناية ستجد عنصرا موسيقيا معينا يرتبط بتدفق الفصول الفرعية القصيرة، فهي تعمل كمقارنات ونقاط مقابلة تنتقل من مشاهد السكينة إلى مشاهد الأسى. الجمل موجزة والكتابة واضحة وبسيطة، إذ تتشكل وفق النمط البدائي للخطاب التقليدي.

لطالما كانت اللغة معضلة في الأدب الإفريقي، هل يجب على الإفريقي أن يكتب باللغة الأوروبية للتعبير عن واقعه، واقع يعكس وعيا مشبعا باللغات الإفريقية التقليدية؟ كان حل اشيبي هو استعمال أمثال الايبو والأغاني والحكايات الرمزية، وايقاع الايبو اللاواعي في رواياته. إلى حد ما، بشكل متعمد أم غير متعمد، تبنى نغوغي هذا النهج، وعُرف لاحقا أنه ذهب إلى أبعد من ذلك حيث صرّح بضرورة كتابة الأدب الإفريقي باللغات الإفريقية، فمن الأفضل ليس إبقاء اللغات الإفريقية حية فحسب، بل وأيضًا تطويرها لتصبح لغات قادرة على التعبير عن الفكر العميق والرفيع. على سبيل المثال لا الحصر: الكيكويو، الإيغبو، أورهوبو، يوروبا، سواحيلي، بانتو، هذه اللغات تنتظر بوشكينها.

ولكن في عام 1964 حينما نشر لا تبك أيها الطفل لم يكن قد توصَّل إلى هذا الحل بعد، وصار لاحقا يكتب رواياته بالكيكويو ويترجمها بنفسه إلى الإنجليزية، عدا لا تبك أيها الطفل التي كتبها باللغة الإنجليزية مباشرة، وفيها يمكنك سماع تيار خفي من لغة الكيكويو، إيقاعها ومباشرتها في

الحديث الرسمي، نوع من التعبير باللغة الإنجليزية عن واقع ونبرة ولون لغة الكيكويو وتسربها من لغة إلى لغة أخرى، مما منح الرواية إحساسا إفريقيا غنيا. هناك العديد من الأمثلة في رواية لا تبك أيها الطفل حيث يتسرب من خلالها العالم الإفريقي بلغة غريبة. «مجموعة من الرجال والنساء يقفون في الفناء، توجهت أعين البعض ناحية كوخ والده، وعيون أخرى تتطلع إلى جهة السوق، لكن أين والدته؟ وجدها في كوخها وبالقرب منها امرأتين من القرية بقيتا مشدوهتين وأعينهما تنظر ناحية الفناء» فإذا أنصتَّ سوف تسمع إيقاع الاتجاهات التي تلفّتت لها العيون المختلفة، هناك أثر طقوسي هنا، إنها تقريبا مثل الدراما، مثل لحظة صامتة في تراجيديا مسرحية. إنها أيضا مثل لحظة نقش خشبي. يتحد الفن والمسرح من حيث الطقوس، طريقة وجودية في تلك السطور البسيطة، إنها أكثر من مجرّد طريقة لترجمة/ حالة. إنها خماسية الأجداد، حالة أو رؤية عالمية تظهر بارزة في لغة نغوغي الإنجليزية.

رواية لا تبك أيها الطفل رواية عن خسارة يتخللها عدد من الخسائر تبدأ بخسارة الأرض. لكن الأرض هنا أكثر من مجرد أرض أو تربة صالحة للزرع أو الحصاد بل عهد مع إله الأجداد. إنه مكان أساسي في سرد طويل لشعب كوني إلى مكانهم في الكرة الأرضية.

في الواقع، الأرض ما هي إلا أسطورة الشعب الموعودة التي ترسيهم على الأرض وفي السماء. أي أن الأرض هي جسد إله الأسلاف، وفقدانها يعني قطع الاتصال برب الشعب. أن تكون غير مرتبط وغير مناسب في الوقت المناسِب. للأرض هنا معنى مختلفا بالنسبة للمستعمِر عن المستعمَر: فهي تُعد مصدرة قوة، مقارنة بجسد المرأة الذي يُعد ملاذًا، الهروب من الوطن، وطن جديد، وفتح. ولكن بالنسبة للأخر فهي الحياة بحد ذاتها، الحياة التي تتدفق

عبر مسارات الأسطورة، الحياة كما هي مجسدة في كل ما يجعل المرء إنسانا. وبالتالي فإن فقدان الأرض علامة على كسر محور الشعب، فالأرض تمثل اللغة والكرامة والهوية والاستقلال والحرية. إن هذا الإحساس الصوفي بالأرض هو جوهر رمزي لرواية لا تبك أيها الطفل، وهذا أعطى الرواية جذرا وعاطفة وعمقا شعوريا، يعبّر عن قوة الارتباط بالأرض عبر حكاية الماو ماو، بينما أطلق عليهم البريطانيين وصف الإرهابيين، واستخدموا أكثر أشكال التعذيب ترويعًا لقمعهم. كان ينظر لهم دائما على أنهم مقاتلين من أجل الحرية. ولا يتضح مدى القمع الذي طال الكثير من الأبرياء إلا لاحقًا في عام 2011، حين اتخذت بريطانيا أول خطوة منذ أكثر من خمسين عاما في طريق التعويض عن ما اقترفوه. وفي ضوء هذه الإفصاحات يتضح مدى عمق فهم نغوغي للوضع في ذلك الوقت. عنصر الماو ماو / تسلل إلى طريقه في السرد بهدوء بداية قصة الحب بين نجوروغي وموبهاكي. ومع نوع من الحتمية المأساوية تجد مقاومة الماو ماو طريقها إلى عائلة نجوروغي. هذا النضال من أجل الحرية، مع الأعمال الانتقامية الوحشية ضد التنظيم الاستعماري في الرواية، بقوة أكبر في تناقضها مع تقوى البطل وبراءة المسيح، تلك البراءة التي تعمل كمذيب يحمل العنف الكامن في الخلفية، براءة النغمة التي ترافق الصراحة المباشرة في الكتابة.

قضية الماو ماو انتهت وأصبحت من الماضي، لكن رواية لا تبك أيها الطفل تابعتها بغض النظر عن سياقها التاريخي، ثم حصلت كينيا على استقلالها وتناوب على حكمها العديد من القادة الأفارقة، ولكن شيئا لا يزال خالدا: قصة حياة نجوروغي. تتغير الكتب عبر الزمن بطريقة رائعة إذا ما كتبت بحبر الفن، إنها دلالة على مدى انجاز نغوغي ككاتب لرواية لا تبك أيها الطفل بإعادة تكوين فكر، وأجواء، وتوترات، وحالة عصر الماو ماو.

كما أنها كتبت في وقتها الخاص، حاملة القوة التي تجعلنا نشعر بالوقائع الثابتة: آمال الشباب، واستحالة العالم، والطريقة التي تؤثر فيها السياسة على حياتنا الحميمية، وضرورة المقاومة وقيمة العائلة. ولو لم يكتب نغوغي عملا أدبيا سوى لا تبك أيها الطفل لتبوّأ مكانة متميزة في الأدب الإفريقي. إنه ينتمي إلى الروائيين الاحتجاجيين. في الواقع إن جومو كينياتا، الذي هو موسى الأسود في الرواية، هو الذي أدخل نغوغي السجن عام 1977 لمدة عام من الحبس الانفرادي. وبالتالي فإنه يجب قراءة لا تبك أيها الطفل جنبا إلى جنب مع الفتى الأسود لريتشارد رايت، ورواية جيمس بالدوين أعلنوا مولده فوق الجبل، ورواية آلان باتون صرخة البلد الحبيبة، ورواية جون ستاينبيك عناقيد الغضب، وكتاب مكسيم جوركي الطفولة.

في نهاية رواية لا تبك أيها الطفل، انطلق نجوروغي في جوف الليل وحيدا مخاطرا بنفسه، تأتي والدته بحثا عنه حاملة مشعلًا، هذا هو تأثير الفن، مشعل متوهج في أيامنا الظلماء، يضيء الطريق بحثا عنا. إنها صورة تكشف الطبيعة المزدوجة للرواية، كيف يسكن بين عالمين؛ عالم الحقيقة وعالم العلن. حقائق كينيا كلها تجتمع في رواية لا تبك أيها الطفل: الانقسامات في المجتمع، الخيانة المتجذرة، إشكالية الأرض، الآثار اللامنتهية للاستعمار. تستمر الرواية كعمل فني في امتاعنا وإثارة اهتمامنا من خلال جمالها الصوري، وقصتها المؤثرة، ونظرتها الشُّجاعة.

لا تبكِ أيها الطفل

لا تبك يا حبيبي

دعني أمسح دموعك بهذه القبلات...

فلن تسود الغيوم الحالكة

ولن تملك السماءَ طويلا...

والت ويتمان، *على الشاطئ ليلا*.


إلى جاسبر كالسي

لا تبكِ أيّها الطفل

الجزء الأوّل

ضوء ينحسر

1

نادته نيوكابي، امرأة ضئيلة الجسم، سمراء ذات وجه بارز الملامح يكتنفه شيء من الغموض، من خلال عينيها الصغيرتين المفعمتين بالحياة والدفء يمكنك أن تدرك أنها كانت جميلة ذات يوم. بيد أن الزمن والظروف السيئة لا تحابي الجمال. ومع ذلك تحتفظ نيوكابي بكامل ابتسامتها، تلك البسمة التي تضيء وجهها الأسمر.

- هل تود الذهاب إلى المدرسة؟

همس نجوروغي:

- أوه يا أمي!

إنه يخشى بعض الشيء أن تتراجع المرأة عن كلمتها.

عمَّتْ لحظات صمت قبل أن تقول:

- إنك تعرف أننا فقراء.

أجابها وقلبه يخفق بقوة بين أضلاعه، وصوته يرتعش:

- نعم يا أمي.

- لذا لن تحصل على وجبة الظهيرة مثل بقية الأطفال.

- فهمت.

- ألن تجلب لي العار برفضك حضور المدرسة يوما؟

- أوه يا أمي... إنني لن أجلب لك العار أبدا، دعيني أذهب إلى هناك فقط... دعيني...

تراءى له ما تخيله عن طفولته، التي بقي لفترة يتصور نفسه فيها، أن هناك مستقبل مشرق من أجله. قال بصوت مرتفع:

- أنا أحب المدرسة...

قالها بهدوء. ففهمت أمه ما أراده.

- حسنا، سوف تبدأ يوم الإثنين، حالما يستلم أبيك أجره سنذهب إلى السوق، وسنشتري لك قميصا وسروالا قصيرا.

آه يا أمي، أنتِ ملاك من عند الله... أنتِ... أنتِ. ثم تساءل: هل ذهبتْ إلى ساحر؟! وإلا كيف تسنى لها أن تتنبأ بأمنية خفية لطفل، حلمه السِرّي! لا يغطي جسدي سوى قطعة الكاليكو، قريبا سأحصل على قميص وسروال قصير للمرة الأولى. «أشكرك يا أمي جزيل الشكر» أراد أن يقول أكثر من ذلك، لكن نجوروغي لم يعتد على التعبير بالكلام عن مشاعره الجياشة، إلا أن عينيه قالتا كل شيء. فهمته نيوكابي، وكانت سعيدة.

حين حضر كاماو في المساء أخذه نجوروغي جانبا:

- كاماو، سوف أذهب إلى المدرسة.

- مدرسة؟

- نعم.

- من قال ذلك، أبي؟

- لا، بل أمنا.

- وهل قالت أمنا الكبرى نفس الشيء؟

- لا يا أخي.

- أنت تعرف أنني أتدرب كنجار ولا أستطيع الانقطاع عن التدريب الحِرفي، لكنني سعيد لأنك ذاهب إلى المدرسة.

- أنا... أوه... أنا سعيد للغاية لكنني أتمنى أن تأتي أنتَ أيضا.

- لا تقلق عليّ، كل شيء سيكون على ما يرام، أنت تتعلم وأنا أتدرب على النجارة. وفي المستقبل سنكون قادرين على الحصول على منزل أفضل للعائلة بأكملها.

- نعم...

قالها نجوروغي وهو مستغرق في التفكير.

- هذا ما أريده. وكما تعلم أعتقد أن السيد جاكوبو غني مثل السيد هولاندس لأنهما متعلِّمَين. ولهذا السبب هما يأخذان أطفالهما إلى المدرسة لأنهما بالطبع عرفا قيمة ذلك.

- هذه هي الحقيقة، فكما تعلم، يجب أن يتعلم البعض ويعمل البعض الآخر في التجارة وغيرها من المهن.

- حسنا، كما ترى، كنت أفكر إذا استطاع كلانا أن يتعلم ويصبح مثل جون الابن الأكبر للسيد جاكوبو، فسيكون ذلك أمرا جيدا. يقول الناس بما أنه أنهى جميع مراحل التعليم في كينيا فإنه سيذهب الآن بعيدا.

- إلى إنجلترا.

- أو بورما...

- إنجلترا، وبورما، والهند، وبومباي، كل هذه الأماكن متشابهة، عليك أن تعبر البحر حتى تتمكن من الوصول إليها.

- المكان الذي جاء منه السيد هولاندس؟

- نعم.

- إنني أتساءل لماذا غادر بلده التي تعلم فيها وجاء إلى هنا، لا بد أنه أحمق.
- لا أعرف، لا يمكنك أن تفهم الرجل الأبيض.

كان هناك طريق واحد يمتد عبر الأرض، طويلا، وفسيحا، وملمَّعا بالقطران الأسود. حينما تمشي بمحاذاته في الأيام الحارة ترى بحيرات صغيرة أمامك، وكلما اقتربت تختفي تلك البحيرات لتظهر مرة أخرى على بعد مسافة قصيرة. أطلق عليها بعض الناس اسم «مياه الشيطان». لأنها مخادعة؛ إذ تجعلك تزداد عطشا وتشعر بجفاف حلقك فعليا. ذلك الطريق الطويل والفسيح الممتد لم تكن له بداية أو نهاية. على الأقل بعض من الناس يعرفون أصله. إذا تبعته فسوف يأخذك إلى المدينة الكبيرة ثم سيتركك هناك بينما يذهب هو إلى المجهول، وربما يلتحم مع البحر.

من سوَّى هذا الطريق؟ لقد أُشيع أن الأمر جاء مع الرجال البيض، وقال البعض إن الأسرى الإيطاليين أعادوا بناءه أثناء الحرب الكبرى التي خيضت بعيدا عن هنا، حيث أن معظم الناس لم يسبق لهم أن رأوا حربا كبرى فيها قتال بالطائرات والسموم والنار والقنابل؛ قنابل من شأنها أن تقضي على بلد كامل كهذا إذا أُسقطت من الجو. لقد كانت حربا كبرى بالفعل حتى أنها جعلت البريطانيين يقلقون ويصلون، قال أبناء الأرض السود الذين ذهبوا للقتال أنها حرب كبرى، وكان هناك حرب كبرى أخرى، الأولى اندلعت لطرد الألمان الذين هددوا بمهاجمة السود وإخضاعهم للعبودية، أو هكذا قيل للناس. ولكن تلك الحرب مرّ عليها زمن طويل جدا، لن يتذكرها سوى الرجال من كبار السن ومتوسطي العمر. ولم تكن كبيرة مثل الحرب الثانية حيث لم تكن فيها قنابل، ولم يذهب السود إلى مصر أو بورما. كما أن الأسرى الإيطاليين الذين عبَّدوا الطريق الطويل تركوا لهم ذِكرا، حيث أنهم

اقترنوا بنساء سوداوات أنجبن لهم أطفالا بيض، بيد أن الأطفال البيض الذين وُلدوا من أمهات سود وأسرى إيطاليين وأصبحوا رجالا بيض، لم يكونوا «بيضا» كالمعتاد. كانوا دميمي الشكل وبعضهم كبروا وأجسادهم مملوءة بالتقرحات وخاصة حول الفم، ولذا فالذباب يتبعهم طوال الوقت وفي كل مكان. فقال البعض أن ذلك عقاب، فلا ينبغي للسوداوات أن يعاشرن رجالا بيضا يحكمونهن ويعاملوهن بسوء. لماذا يجب أن يُحارب الرجال البيض؟ أه!! لأنه لا يمكنك أبدا أن تعرف ما الذي يفعله هؤلاء الأشخاص. على الرغم من حقيقة أنهم كانوا جميعا من البيض إلا أنهم قتلوا بعضهم البعض بالسم والنار والقنابل الكبيرة حتى دُمرت الأرض، كما أنهم استدعوا أشخاصا لمساعدتهم في قتل بعضهم البعض، كان أمرا محيرا بالفعل، لا يمكنك أن تفهم حقا ما يحدث لأنهم قالوا أيضا إنهم قاتلوا هتلر! (آه! هتلر ذلك الرجل الشجاع، الذي أخَافَ كل البريطانيين، ولم يتمكنوا منه، لم يُقتل كما تعلمون، بل اختفى هكذا) هتلر أيضا كان رجلا أبيض. لا يأخذك هذا الأمر بعيدا جدا. كان من الأفضل التخلي عن المحاولة والرضا بمعرفة الأرض التي تعيش فيها والناس الذين يعيشون على مقربة منك. وإذا لم يكن هذا كافيا وأردت رؤية المزيد من الناس وسماع المزيد من القصص من كل مكان - حتى قصص ما وراء البحر وروسيا وإنجلترا وبورما - فعليك الحذر من يقظة زوجتك والذهاب إلى المدينة المحلية، كيبنغا. ويمكنك إخبارها على سبيل المثال أنك ذاهب لشراء بعض اللحم من أجل العائلة. هذا شيء جيد.

- اذهب ولا تُطِل التسكع، أنا أعرفكم أيها الرجال، إذا رغبتم في تجنب العمل، تذهبون إلى المدينة لتناول المشروبات بينما نحن عبيدكم يجب أن نكدح ونتصبب عرقا.

- سأعود سريعا.

- انظر كيف تدير عينيك لا يمكنك حتى أن تنظر في وجهي لأنك تعلم أنك حين تذهب إلى هناك ستبقى طوال اليوم.

- ثقي بي هذه المرة وسأعود باكرا.

- يا لفكرة الوثوق بك!

باستطاعتك أن تسلك طرق شتى من قرية ماهوا إلى كيبانغا، تمكنك من إتباع الطريق الكبير الذي يمر بالقرب من المدينة، أو يمكنك أن تسلك طريقًا يمر عبر واد داخل المدينة على أطراف الريف مثل منطقة كيكويو، حيث تقع العديد من الوديان والسهول الصغيرة، حتى أن الطريق الكبير يمر بالجانب الآخر من الوادي. حين يلتقيان - الطريق الكبير والوادي - يتسعان باتجاه السهل مستطيل الشكل إلى حد ما، من أطرافه تمتد أربعة أودية منه وإليه، الواديان الأوليان يؤديان إلى ريف السكان السود، أما الاثنان الآخران فيفصلان أرض السكان السود عن أرض السكان البيض. وهذا يعني أن هناك أربعة منحدرات تصطف قبال بعضها البعض. يقع منحدران على الجانبين المتقابلين للسهلين الطويلين الفسيحين والقريبين من بعضهما، أما المنحدرين الأخرين فقد كانا ضيقين ونهايتيهما مدببتين. يمكنك أن تميز أرض السكان السود فهي حمراء وخشنة لا حياة فيها. في حين أن أرض المستوطنين البيض خضراء وليست مقسمة إلى حقول صغيرة. في هذا المكان بُنيتْ كيبنغا، لم تكن بلدة كبيرة مثل المدينة الكبيرة، ومع ذلك كان فيها مصِنع أحذية واحد، يُعد هذا المكان مصدر دخل الكثيرين من السود، بالإضافة إلى الكثير من المتاجر الهندية، حيث عُرف أن الهنود الأثرياء قد وظفوا القليل من الأولاد السود وكانوا يعاملونهم كأنهم نكرة. لا يمكنك

أن تحب الهنود لأنهم أصحاب عادات غريبة ومضحكة على نحو سيء. لكن محلاتهم كانت كبيرة ومجهزة جيدا بالبضاعة. وغالبا ما يجيء المستوطنون البيض مع زوجاتهم وأطفالهم لشراء كل ما يريدون من الهنود الأثرياء. كان الهنود يخشون الأوروبيين، فإذا ذهبت إلى الشراء من متاجرهم ورآك رجل أبيض فإنهم يمتنعون عن بيعك، وسيحدث اضطراب في المكان كله حتى ينتهوا من خدمة الرجل الأبيض. لكن البعض قالوا إنها طريقة ماكرة لخداع النساء البيضاوات لأنه حين يرتعد الهندي ويجيب: «نعم، تفضلي، سيدتي أتريدين شيئا آخر؟» حينها سيدفع النساء أي ثمن يُقال لهنّ، لأنهن يعتقدن أن الهندي الذي يخشاهن لن يجرؤ على غشهن في السعر.

يشتري السود أيضًا أشياء من المحلات الهندية ومن المحلات الإفريقية التي تصطف على جانب واحد من البلدة بالقرب من مكتب البريد. لم يكن هناك الكثير من الأشياء في متاجر الإفريقيين، إلا أنهم يضعون أسعارا أعلى بشكل عام، وهذا ما لا يعجب الهنود، وكونهم يسيئون للنساء أيضا باستعمال الكلمات القذرة التي تعلموها من اللغة السواحيلية، اكتشف الناس أن الشراء منهم أكثر حكمة واقناعا. قال البعض أنه يتوجب على السود أن يلتزموا بالتعامل مع بعضهم البعض، أي مع إخوانهم السود فقط. فقالت امرأة مسنة فقيرة ذات يوم: «دعوا الأفارقة يتكاتفون ويبيعون بأسعار مخفضة، فنحن كلنا سود. وإذا لم يهم أحد هذا الأمر، فلماذا نتضايق إن وجدت امرأة فقيرة فرصة للشراء من أحدهم سواء كان رجلا أبيض أو أحمر؟ من يبيع هذه الأشياء بأسعار أقل؟»

في البازار الهندي اختلط السود مع البيض والهنود، فلا تعرف ماذا تسمي الهندي. أهو رجل أبيض؟ أقدم من إنجلترا؟ قال بعض الأشخاص الذين

زاروا بورما أن الهنود فقراء في بلدهم، ويحكمهم رجال بيض أيضا. و هناك يوجد رجل هندي يدعى غاندي، كان هذا الرجل نبيا غريبا، حارب من أجل حرية الهند دوما، وهو رجل نحيل يرتدي ثوب كاليكو فضفاضا يغطي جسده الهزيل كله. حين تمشي بمحاذاة المتاجر الهندية يمكنك رؤية صورته داخل كل مبنى هندي، كان الهنود يدعونه «بابو»، وقبل إن بابو تعني - في الواقع - إلههم. لقد أمرهم بعدم خوض الحرب، وبينما جُنِّد السود في الجيش رفض الهنود الانضمام إليه فتُركوا وشأنهم. وأشيع أن الرجال البيض في كينيا لم يعجبهم ذلك، أن يرفض الهنود الحرب ضد هتلر، لقد أظهر هذا الأمر أنهم جبناء. مال الإفريقيون لتصديق فكرة الجبن الهندي.

صُممت المتاجر الإفريقية على شكل صفين متوازيين، أجواءها مليئة بالضجيج وتفوح من سوق اللحوم رائحة اللحم المحترق النتنة. الكثير من الشباب لا يقومون بفعل شيء سوى التسكع بين المتاجر. وبعضهم قد يعمل طوال اليوم مقابل رطل من اللحم. يسمونهم «الأولاد الكسالى» ويقولون في القرية إن هؤلاء الرجال سوف يتحولون لاحقا إلى لصوص ومجرمين. هذه الفكرة تجعل الناس يرتعدون لأن القتل بدم بارد يُعد عملا فاسدا، فالرجل المقتول يُعد لعنة دائمة في السماء والأرض. يمكن للمرء أن يتعرف على هؤلاء الأولاد فقد شوهدوا يتجولون حول المقاهي ومحلات اللحوم وحتى في البازار الهندي، ينتظرون أي مهمة قد تكسبهم وجبة ليوم واحد. في بعض الأحيان كانوا يسمون أنفسهم «شباب هتلر».

يُعد محل الحلاقة مكانا مشهورا، كان الحلّاق رجلا أسمر وقصيرا وشعره مسرح بعناية فائقة. هو رجل يحب الدعابة وسرد القصص المضحكة، يعرفه الجميع والجميع يعرفونه. ولا يُعرف إلا باسم «الحلاق»، فإذا قلت إنك لا

تعرف من الحلاق وأين مكانه فلابد أنك أبله. تعني كلمة «أبله» بلغة أهل البلدة الرجل الذي لا تدعه زوجته يترك حجرها لحظة واحدة. كيف يمكن لأحد ألا يزور الحلاق الذي يغني ويرقص ويتحدث الإنجليزية؟

- لقد تعلمتها أثناء الحرب الكبرى.

- وهل كانت حربا كبرى بالفعل؟

(صوت مقصه يتردد سريعًا. يقف الجميع منتظرين الحديث المتوقع عن الحرب الكبرى. يتحدث الحلاق على مهله)

- أيها الرجال لا تسألوا إن كنت قد ذهبت إلى هناك، إلى أي حد دوَّت القنابل والمدافع الرشاشة والقذائف، آآآه... الناس يبكون ويموتون. ليتكم كنتم هناك.

- ربما مثل الحرب الأولى؟

- ها... ها... ها... تلك تُعد حرب أطفال، لم تندلع الحرب إلا هُنا. الأفارقة الذين ذهبوا إليها كانوا مجرد حمّالين. ولكننا في هذه الحرب... (أدر رأسك إلى هذه الناحية... لا ... الناحية الأخرى... نعم هكذا) حملنا البنادق وأطلقنا النار على الرجال البيض.

- الرجال البيض؟

- نعم... إنهم ليسوا الآلهة التي اعتقدناها، حتى أننا نمنا مع نسائهم.

- وكيف كنّ؟

- لسن مختلفات... لسن مختلفات. أنا أحب الجسم الأسود الممتلئ والمتعرِّق. لكنكم تعرفون أنهن بلا لحم... لا شيء.

- لكن كان الأمر رائعا...

- قبل أن تبدأ تظن أن الأمر... مدهش! لكنه لا شيء، وعليك أن تدفع

بعض المال؟

- أهناك!

- هناك الكثيرين... الكثيرين كانوا على استعداد للبيع، وكان ذلك في القدس من بين كل الأماكن.

دُهش الناس المحيطون به.

- لا تقصد أن تقول إن هناك مكانا مثل القدس؟

- هاهاها، أنتم لا تعرفون... أنتم لا تعرفون... لقد رأينا الكثير من الأماكن والأشياء. أنت الآن جاهز... لا انتظر لحظة (صوت مقصه مرة أخرى). لقد انتهيت الآن... أنت تبدو أنيقا، هل ذهبت إلى القدس؟

- لقد تأخر الوقت، ويجب أن أذهب لشراء حاجيات لأهلي.

- وأنا أيضا أخبرت زوجتيّ أنني سوف اشتري لهما اللحم، والظلام قد حل الآن.

- يا للنساء!

- أوه نعم... النساء...

وبهذه الكلمات شق نغوثو طريقه بين الزحام إلى الخارج. كان يحب الاستماع إلى الحلاق دائما، بطريقة ما، يذكره الحديث برحلاته ومشاكله التي مر بها خلال الحرب العالمية الأولى كصبيٍ جُنِّدِ وحمل أشياء ثقيلة لقتال الرجال البيض. كان عليه أن ينظف الأدغال المظلمة ويمهِّد الشوارع. وبعد ذلك لم يُسمح له أو للآخرين باستعمال الأسلحة. لكن في الحرب التي شارك فيها الحلاق حدث شيء مختلف، ذهب ابناه للحرب ولم يعد سوى واحد منهما. الذي عاد لم يتحدث عن الحرب التي حدثت بالفعل، باستثناء قوله إن ما حدث مضيعة حقيقية للحياة.

اشترى نغوثو أربعة أرطال من اللحم، كلّ رطلين معًا. رطلان لزوجته الأولى نيري، ورطلان لزوجته الثانية نيوكابي. كان على الزوج أن يكون حكيما في هذه الشؤون وإلا فإن ثغرة صغيرة أو تحيزًا ظاهرًا يمكن أن يولِّد بسهولة حربا أهلية. لم يخش نغوثو هذا الأمر فهو يعرف أن زوجتيه تحبان بعضهما البعض وهما شريكتان وصديقتان جيدتان. لكنه ليس بإمكانك الوثوق في النساء. فهن متقلبات وغيورات جدا. وحين تغضب المرأة لن يهدئها الضرب مهما كان مبرحا. نغوثو لم يكن يضرب زوجتيه كثيرا وكان بيته معروفا بأنه بيت سلام. ومع ذلك، على المرء أن يحذر.

سار بين الحقول، لم يشأ أن يسلك الطريق الكبير أو طريق الوادي لأنهما يأخذان وقتا طويلا.. تساءل عما ستقول نيوكابي ونيري، لم يفِ بوعده، وعزم ألا يعود إلى البيت باكرا. زوجتيه كانتا صالحتين، ليس من السهل العثور على نساء مثلهما هذه الأيام. كان صحيحا ما قاله الحلاق عن الجسم الأسود الممتلئ والمتعرق. انظر إلى الممسايب[1] اللاتي يعمل لدى أزواجهن، إنهن نحيلات لدرجة أن نغوثو تساءل إن كان عندهن لحم، ما الذي يريده الرجل من زوجة كهذه؟ الرجل يريد امرأة سمينة. مثل زوجتيه نيوكابي ونيري، خاصة حينما تزوجهما. ولكنهما تغيرتا بمرور الزمن... وتساءل عما قاله الحلاق - بشأن معاشرته لامرأة بيضاء - إن كان ذاك حقيقيًا. من كان يعتقد أن امرأة مثل السيدة هولاندس قد تجعل من نفسها رخيصة وتعاشر رجلا أسود من أجل المال؟ ومع ذلك يمكن للمرء أن يصدق كل شيء هذه الأيام. وتساءل إن كان ابنه بورو قد فعل مثل هذا الشيء. بالطبع قد يفعل، ولكن فكرة أن يدفع مالًا مقابل ذلك لم تكن لطيفة على الإطلاق. وإذا لم يكن

---

1 كلمة تُطلق على زوجات الرجال البيض. (المترجمة).

لديه شيء يُفتخر به فمن الأفضل أن يكون لديه امرأة سوداء.

حيته نيوكابي:

- كم أنت سريع!

أضافت نيري بذات اللهجة الساخرة:

- أنتِ تعرفين أن الرجال دائما سريعين جدا.

المرأتان تبقيان معا سواء لتقصير الليل أو إطالته، ونغوثو سعيد بحق، وكان يعلم أنهما حين تستعملان ذات النبرة فإنهما تريدان التودد إليه.

- ذهبتُ إلى الحلاق.

- كما لو أننا لا نعرف استخدام شفرة حلاقة لإزالة الشعر.

- حسنا الوقت تغير كما تقول السيدة هولاندس...

- أنت تريد أن تصبح عصريا مثل الرجل الأبيض.

- أنتما امرأتان مزعجتان خذا هذا اللحم أولا.

وتناولت كل واحدة منهما حصتها.

قالت نيري:

- حان الآن الوقت لأذهب وأزعج الشباب.

كان أولاد نغوثو مع شباب وشابات من جبال ماهوا في كوخ نيري. عادة ما يجتمعون هناك للسّمَر ليلًا. وفي مثل هذه الأوقات تدعهم نيري وحدهم وتجلس مع نيوكابي، وحينما يجتمعون في كوخ نيوكابي تفعل نيوكابي الشيء نفسه، تتركهم وحدهم وتذهب لزيارة نيري. لكن في بعض الليالي يريد الشِبان أن يستمعوا لقصص نغوثو أو المرأتين، وفي مثل هذا الوقت يفضلون البقاء معًا في مكان واحد.

قالت نيوكابي لنيري بينما غادر نغوثو:

- أخبري نجوروغي أن يأتي ويُري ملابسه الجديدة لوالده.

كان نغوثو فخورا بأن ابنه سيبدأ التعلم في المدرسة، عندما يسأله أي شخص الآن إن كان قد ألحق أحد ابنيه بالمدرسة فإنه يجيب بكل فخر:

- نعم، إنه يشعر بالمساواة الآن مع جاكوبو.

- متى سيبدأ؟

- يوم الإثنين.

- هل أحب الفكرة؟

- يبدو أنه سعيد.

كانت محقة، قلب نجوروغي ممتلئ بالسعادة والامتنان، عندما علم انه مثل مويهاكي، ابنة جاكوبو، سيبدأ في تعلم القراءة والكتابة.

2

في يوم الاثنين ذهب نجوروغي إلى المدرسة، لم يكن يعرف مكانها على وجه الدقة، فلم يسبق له الذهاب إلى هناك رغم أنه يعرف الطريق إليها. صحبته مويهاكي وأرته الطريق. هي فتاة صغيرة لطالما أعجب بها نجوروغي. ذات يوم تشاجر الصِبية الرعاة مع أخوي مويهاكي وتراشقوا بالحجارة فأصابتها واحدة. هرب الأولاد ولحقهم أخواها... بقيت وحدها تبكي، كلمها نجوروغي الذي راقب المشهد من بعيد وشعر كأنه يهدئ طفلًا يبكي، إنها الآن أكثر خبرة وتوصله إلى المدرسة.

مويهاكي هي ابنة جاكوبو مالك الأرض التي عاش عليها نغوثو. كان نغوثو مُكّاري[2]، ونجوروغي لم يفهم ذلك، كيف يكون أبوه مُكاري؟ ربما لأنه صغير السن فلا يعرف بعض الأمور. هذه أمور عميقة لا يمكنه فهمها في هذا العمر. كان لجاكوبو ابن وابنة صغيرين، وابن كبير، وابنة كبيرة تعمل معلمة اسمها لوسيا. طالما أعتقد نجوروغي أن لوسيا اسم جميل. جميع أخواته يحملن أسماء قبيحة، ليس مثل لوسيا.

كان الأولاد الآخرون يعاملونه بفظاظة، يسخرون منه ويلقون على

---

2 (Muhoi) والمكاراة والكراء الإجارة والكروة أجرة المستأجَر ويقال رجل مُكارٍ وهذه المفردة تستخدم في إجارة الأرض في بعض الأقاليم في الوقت المعاصر (الأحساء مثلا). (المترجمة).

مسامعه نكاتا فظة صدمته. اهتز تقديره السابق لطلاب المدارس. لقد ظن أنه لا يمكن أن يتلفظ بالنكات أبدا فهذا أمر سوف يغضب نيوكابي، أمه، إن فعله.

سأله ولد:

- هل أنت نيوكا؟

فأجاب:

- لا لست نيو- كا.

- إذن من أنت؟

- أنا نجوروغي.

ضحكوا بقوة. شعر بالضيق، أقال أي شيء مضحك؟

أمره فتى:

- احمل هذه الحقيبة يا نيوكا.

كان على وشك أن يحملها حين جاءت مويهاكي لإنقاذه:

- إنه نيوكاي، لا يمكنكم الإساءة إليه.

ضحك البعض وسخر بعضهم الآخر: «اتركوا نيوكا مويهاكي». «إنه صبي مويهاكي». «سيكون زوجا جيدا». «نيوكا سوف يصبح زوجا لمويهاكي». «نيوكا يعني نيوكا، يتوجب عليه حمل حقيبتي عني فقط».

أربك وأحرج هذا الحديث نجوروغي، لم يعرف ما الذي عليه فعله.

انزعجت مويهاكي وصرخت:

- نعم، إنه نيوكاي، فليقترب أحدكم منه.

خيم الصمت على الجميع بعد ذلك. شعر نجوروغي بالامتنان، من الواضح أنهم يخشون مويهاكي لأن أختها معلمة وقد تبلغ عنهم.

بدت المدرسة مكانا غريبا ولكن رائعا. الكنيسة ضخمة وجوفاء، جذبته كأنها مسكونة، إنه يعرف أنها بيت الله لكن بعض الأولاد صرخوا أثناء وجودهم هناك. وهذا أمر صدمه جدا، لقد نشأ على احترام جميع الأماكن المقدسة مثل المقابر والأدغال المحيطة بأشجار التين. كانت المعلمة ترتدي قميصا أبيض وتنورة خضراء، أحب نجوروغي الأبيض والأخضر لأنه يذكره بالزهرة البيضاء وهي تتفتح على النبات الأخضر. في البلدة يكون العشب أخضر في الجو الرطب، وتنتشر الزهور البيضاء المتفتحة في كل مكان خاصة في موسم نياهي[3]. ومع ذلك خاف منها نجوروغي حين ضربت ولدا بعد يومين. خبطته على يده (مد يدك الأخرى) وخبطته عليها حتى تكسرت العصا إلى أجزاء صغيرة. شعر نجوروغي بالألم، كما لو أنه أنتقل إليه دون اتصال جسدي. وبدت المعلمة قبيحة بينما تعاقب الولد. يكره نجوروغي رؤية أي شخص يتعرض للضرب، وأسف على ما حصل للولد. لكنه لا يجب أن يتنمر على نيوكا. في ذلك اليوم علم نجوروغي أن «نيوكا» أسم يُطلق على الطالب الجديد.

اعتاد نجوروغي أن يبقى وحيدا معظم الوقت، وأن يعود إلى المنزل أبكر من بقية الأولاد الآخرين في القرية، لأنه يريد أن يصل قبل حلول الظلام. بينما يتباطأ الأولاد السيئون في العودة إلى منازلهم حتى لا يُطلب منهم المساعدة في أعمال المنزل المسائية، وإذا ما وصلوا إلى منازلهم ادعوا أن المعلمة لوسيا (أو إسحاق) أبقتهم حتى وقت متأخر. لكن في بعض الأحيان تُكتشف حيلتهم ويتعرضون للضرب. نجوروغي لا يحب أن يُضرب.

بعد ثلاثة أسابيع أغضب ونجوروغي والدته، كان ذلك خطأ مويهاكي

3 موسم الطويلاء أو اللبلب الأرجواني وهي نباتات زهرية من فصيلة البقوليات. (المترجمة).

حيث طلبت منه أن ينتظرها حتى يعودا إلى المنزل معًا، لأن منزليهما قريبان، إلى جانب ذلك فهي تخشى بعض الأولاد. كان نجوروغي سعيدا حيث أنهما قطعا الطريق إلى المنزل ببطء وهما يتبادلان الحديث. وحينما وصلا أعلى التل القريب من القرية جلسا يلعبان، كان من الجيد اللعب مع فتاة وخاصة إذا كانت ذات مستوى أعلى اجتماعيًا، كانت تبدو غالية لندرتها، صغيرة ورقيقة، سرعان ما نسيَ أن الشمس تغرب بينما هما يتنافسان من يلقي الحجارة مسافة أبعد. وكان هذا الوقت الذي جاءت فيه أمه ورأتهما. راقبت نيوكابي الشمس وهي تغرب دون أن يظهر ابنها، لقد قلقت عليه وبقلبها الهلع خرجت للبحث عنه. لم تضرب نجوروغي لكنه يعرف جيدا أنها منزعجة. هي لا تريد أن يكون لابنها صلة بالعائلات الثرية فهذا أمر غير جيد له. اعتقد نجوروغي أنه خطأ مويهاكي وأنها فتاة سيئة ووعد نفسه ألا يلعب معها مرة أخرى أو أن ينتظرها. في أحد الأيام عاد إلى المنزل ووجد أمه تطحن حبوب الخروع، بعد أن تجمعها لعدة أشهر تبيعها في السوق كما تفعل دائما.

- دعيني أساعدك يا أمي.

- اذهب وأنجز واجباتك المدرسية أولا.

كانت نيوكابي فخورة بأن يكون لديها ابن في المدرسة. لكم أسعدها هذا الأمر وأثلج صدرها كلما رأته ينحني مرة تلو مرة على لوح الكتابة أو يحكي لها عما رآه في المدرسة، تشعر بالغبطة وهي تأمره بأن يذهب ليقرأ أو يحل بعض المسائل الحسابية. وستكون أعظم عُقبى لأمومتها أن ترى ابنها في يوم ما يكتب الرسائل، ويجري العمليات الحسابية، ويتحدث باللغة الإنجليزية. حاولت أن تتخيل ما يمكن أن تشعر به امرأة هولاندس وهي أم لأبن وابنة في المدرسة. لقد أرادت أن تكون مثلها أو مثل جوليانا زوجة

جاكوبو، فمن المؤكد أنها شعرت بالفخر لأن لديها ابنة معلمة وابن من المحتمل أن يسافر إلى بلاد أجنبية في وقت قريب. كان ذلك شيئا يمثل جوهر الحياة. لا يهم أن يموت المرء فقيرا فيما بعد ما دام يمكنه القول: «انظروا، لديَّ ابن صالح ومتعلم مثل أي شخص يمكن ان تجده على الأرض». ولست في حاجة لأن تكون متعلما لتعرف ذلك. غريزتها كأم تاقت إلى شيء أوسع مما تمليه عليها ظروفها الاجتماعية والأوضاع التي شهدتها. وهذا هو السبب الذي جعلها تلفت نظر زوجها نغوثو إلى ضرورة تعليم ابن واحد على الأقل. مات ابنها الثاني في الحرب الكبرى، وقد آلمها ذلك كثيرا، لماذا كان عليه أن يموت في حرب للرجال البيض؟ هي لا تريد التضحية بما لديها من أجل آناس آخرين. إذا كان بإمكان نجوروغي الآن أن يتعلم مثل كل الرجال البيض فهل سيظل نغوثو يعمل لصالح هولاندس خاصة أن زوجته كما يُشاع امرأة قوية؟ هل سيواصلون العيش كعائلة مثل آهوي[4] على أرض رجل آخر، هذا الرجل الذي استاء بوضوح من إقامتهم على أرضه. لقد اجتمعت العديد من الدوافع من أجل رغبة واحدة، الرغبة في وجود ابن متعلم. في هذه الأيام فكّرت لو أن لديها مالًا كثيرًا لأرسلت بناتها المتزوجات للمدرسة ليحصل الجميع على التعليم الذي يمكنهم على الأقل من التحدث بالإنجليزية.

يتوسل إليها وهو جاث على ركبتيه لمساعدتها على الرغم من رفضها لذلك:

- أمي، لابد أن تخبريني بكل تلك القصص مرة أخرى.

غمغمت وهي تنفخ على البذور التي في يدها لإزالة القاذورات عنها:

- همممم...

4 من يعيش على أرض لا يملكها. (المترجمة).

توقفت للحظة وابتسمت:

- أنت شاب ماكر، لأجل هذا عرضت عليَّ المساعدة، صحيح؟

قال بجدية:

- يجب يا أمي...

- لماذا يجب عليَّ؟

سألتْ بلا مبالاة واستأنفت عملها.

- لقد طُلب مني أن أحكي قصة اليوم، وتبادرت إلى ذهني قصة ارميو التي قصصتها لنا. وحين وقفت أمام طلبة الفصل ورأيت عيونهم مثبّتة نحوي شعرت بالخوف...

توقف برهة، ثم تابع:

- لقد نسيت القصة.

صمت بشكل دراماتيكي وبنبرة مأساوية كما ولو أن مثل هذه المشكلة نادرا ما تحدث.

- لا يجب على الرجل أن يخاف أبدا، يجب أن تحضّر قصة أخرى، لديك الكثير من القصص، أتذهب كل تلك القصص التي نخبركم إياها أنا وأمك الكبيرة عن القبيلة هدرا؟

- أخبرتك يا أمي أنني نسيتها كلها!

أخذ يتوسل بكل ما أوتي من قوة حتى أن نيوكابي لم تتمالك نفسها وضحكت. يصبح نجوروغي جديًا جدا بخصوص بعض الأشياء. ولكنه الآن يضحك بشدة. يحب نجوروغي والدته حينما تضحك وتظهر أسنانها البيضاء كالحليب التي لم يفسدها الدهر.

- حسن يا وحيدي، سأحكي لك بعض القصص في المساء. أوه لقد

نسيت أمك الكبيرة تريدك أن تلحق بأخيك. اذهب حالا.

ذهب إلى الكوخ ورمى باللوح ثم هم بالخروج حين نادته فعاد مجددا.

- ألن تخلع ملابسك المدرسية؟

شعر بالخجل، لا ينبغي أن ينسى ثم عاد إلى الكوخ وخلع ملابسه وارتدى قطعة قديمة من الكاليكو. كان هذا جزء من الاتفاق، أن يحافظ على ملابس المدرسة سليمة أطول فترة ممكنة.

الطريق الذي سلكه يمر من أسفل منزل مويهاكي مع المنازل المتوارية خلف أشجار التنّوب النامية المحيطة بها. تستطيع أن ترى السقف الحديدي المموج والجدران الخشبية للمبنى الفخم من خلال فتحة أو فتحتين في السياج. لقد جاء نجوروغي إلى ذلك الفناء عدة مرات، حين أتوا للحصول على المال حيث قاموا بقطف زهور البيرثروم لجاكوبو. بدا المنزل مثل المنازل الأوروبية، وكان نجوروغي يخشى البيئة المحيطة بالمجمع بأكمله. لم يدخل يوما إلى المبنى الكبير وهو دائما ما يحرقه الفضول لمعرفة شكله الداخلي.

لكنه دخل المطبخ ذات مرّة. كان المطبخ عبارة عن مبنى منفصل مستدير الشكل جدرانه من الطين ومسقف بالأعشاب، يستخدم للتبريد وأيضًا ينام فيه الخدم، لقد دخله في يوم عيد الميلاد حيث دعت جوليانا العديد من الأطفال الذين كانوا يعملون عادة لدى جاكوبو. كانت امرأة سمينة ذا وجه دائري جميل ونظرات متعجرفة. لكنها كانت تتعامل بلطف مع الأطفال، واشترت الكثير من الخبز في هذه المناسبة، كيف بدا في تلك الأثناء وهو موضوع على صينية قريبة، كان شهيا ذا حواف مدببة، حتى سال اللعاب من فم نجوروغي وواجه صعوبة في ابتلاعه خشية أن يظهر صوت مسموع في حلقه قد يخيف مضيفته وأطفالها. لكن الجزء المأساوي من الحفلة بدأ حين

طلب منهم أن يغمضوا أعينهم للصلاة قبل تناول الطعام، وإذا بطفل يصدر صوتا مضحكا مما حدا بنجوروغي أن يقهقه. وما أن شرع في الضحك حتى تبعه واحد آخر بصوت أعلى منه، ثم دخل الاثنان في نوبة ضحك مما تسبب في قطع تلك الصلاة. كان الأطفال جائعين، لكن جوليانا انزعجت وألقت موعظة طويلة لنجوروغي والأطفال المجتمعين. لو كانا هؤلاء الشقيان طفليها وأساءا التصرف على هذا النحو لحرمتهما من وجبتهما لمدة يومين، لكنهما ليسا طفليها كما أن أطفالها لم يسيئوا التصرف قط لأنها ربتهم على مبادئ التحضر والأخلاق الحميدة، وختمت حديثها أنه من رأيها المعتبر أن تربية الأطفال يجب أن تكون كما ربت هي أطفالها. وحتى لو لم يفعل الناس ذلك فهي لا تحب أن يتصل أطفالها بالبيوت البدائية. أحس نجوروغي أن طريقة تربيته تُنتقد. في ذلك اليوم قدَّرت مويهاكي نجوروغي واهتمت به أكثر بعد تلك الموعظة. ربما لتخفف عنه جرح مشاعره.

كان ذلك منذ وقت طويل. قبل أن يغادر نجوروغي بعيدا شاهدها قادمه نحوه من الجهة المعاكسة، إذا ما استمر في هذا الطريق سوف يقابلها. فجأة أدرك أنه لا يريد أن يقابلها وهو يرتدي هذا الرداء الكاليكو الذي يتطاير أسفله بفعل الرياح فيظل مكشوفا. لفترة من الوقت كان مترددا وكارها لنفسه بسبب شعوره تجاه ملابسه. وفي الواقع وقبل أن يبدأ الذهاب إلى المدرسة حين أبرم اتفاقه مع أمه لم يكن يظن أنه سيتخلى عن الكاليكو وهو اللباس الوحيد الذي عرفه منذ ولادته. التفت ناحية اليسار وتبع طريقا آخر يحيط به حقل برثيوم منحدر يملكه جاكوبو أسفل الغابة، حيث هناك أيضا المزيد من المتاجر الهندية والإفريقية، لكن هناك القليل من الأسقف يمكن رؤيتها فقط. كانت الأرض التي يملكها السيد هولاندس مجاورة

لأحد التلال الصغيرة الضيقة التي يمكن رؤيتها على اليمين، كان ذلك المكان الذي يعمل فيه نغوثو والد نجوروغي حيث يمر بالقرب منه وهو في طريقه إلى المدرسة.

غادر حقل البريثوم واتخذ منعطفا آخر ليعود إلى الطريق الذي تجنّبه في البداية، ومنه انتقل إلى الحقل الثاني. حيث يمكنه رؤية منزل نجانغا نجار القرية الذي درّب كاماو. كان على نجوروغي أن يدفع عنزة سمينة ومائة وخمسين شلن فوقها قيمة التدريب. إن نجانغا رجل ثريّ ويملك أرضًا، أي رجل يملك أرضًا يُعد غنيا. فلو كان رجلا يمتلك مالا كثيرا وعددًا من السيارات ولا يملك أرضًا فلا يمكن اعتباره غنيا أبدا. والرجل ذو الملابس الممزقة لو كان يمتلك فدانا من أرض حمراء فهو أفضل حالا من الرجل ذي المال. كان نجانغا يتحمل نفقة ثلاث زوجات، ورغم أنه أصغر من نغوثو لم يشارك في الحرب الأولى أو الثانية، لكن قيل إنه ذكي رغم قسوته بعض الشيء، وأنه ليس نزيهًا تماما. يحمل كل شخص في القرية إليه ساطورًا أو مجرفة أو سكّينًا ليصلح مقابضها، كما يقوم بإصلاح السياج المكسور، ويصنع الطاولات والسرر من كل الأنواع، ويحكي القصص أيضا. هذا يعتبر شيئا جيدا للرجل.

أوشك نجوروغي أن يصل إلى الفناء حين رأى أخيه كاماو مقبلا، فهو قد انتهى للتو من عمله. بدا نجوروغي سعيدا حينما رآه رغم أن كاماو أكبر سنا إلا أن علاقتهما كانت منسجمة.

قال كاماو وهو يشد يد نجوروغي بوجه كئيب:

- هيا لنذهب يا أخي.

- لقد تأخرت اليوم.

- أهذا رجل؟!

ظن نجوروغي أن أمرا سيئا قد حدث. فلم يعتد على رؤية أخيه غاضبا. سأله:

- أليس رجلًا طيبًا؟!

- رجل طيب! لولا أنني أعرف أن والدي سينزعج بعدما دفع تلك الأموال وإلا لتوقفت عن العمل معه. لقد بدأت العمل معه منذ ستة أشهر وبالأمس فقط سمح لي لأول مرة باستعمال فأرة النجار، كل ما يقوله لي دائما «امسك هنا، امسك هناك». ويطلب مني أن أشاهد وألاحظ بانتباه شديد. كيف يمكن للمرء أن يتعلم دون ممارسة؟ والممارسة بالتأكيد ليست كنس الفناء ورفع القمامة وحمل الأدوات اللازمة له. أتعلم أنني إذا حاولت لمس شيء... (هنا تحدث كاماو بشيء من الاشمئزاز) تجعلني زوجته الصغرى أحمل طفلها كما لو أنها امرأة أوروبية وأنا المربية قائلة: «أوه يا عزيزي، إنه صغير قذر لا يكف عن الصياح» و...

- لماذا لم تخبر أبي؟

- نجوروغي ألا تعرف أبي؟ من الواضح أنه سيقف في صف نجانغا فيما يتعلق بمسألة المشاهدة فحسب، لأنها الطريقة القديمة التي اعتاد الناس على تعلم الحِرف بها، إنهم لا يدركون أن الأمور تغيرت.

بقيا صامتين وهما في طريقهما إلى البيت وقد حلت عليهما الكآبة والظلام يوشك أن يحل. ثم فكر نجوروغي في سؤال مهم فجأة، سأل أخيه:

- ولكن لماذا يعاملك هكذا؟ إنه رجل أسود.

قال كاماو بمرارة:

- سواد البشرة ليس كل ما يصنع الإنسان. هناك أناس سواء سود أو

بيض لا يحبون أن يتفوق عليهم أحد؛ إنهم يريدون أن يكونوا مصدر المعرفة كلها ثم يشاركونها شيئا فشيئا مع الأقل موهبة. وهذا الخطأ الذي يمارسه كل هؤلاء النجارين مع الرجال محدودي المعرفة. والأمر نفسه عند الرجال الأثرياء، فالرجل الغني لا يرغب أن يكون الآخرين أغنياء ليظل هو صاحب الثروة الوحيد.

قال نجوروغي باعجاب فهو لم يسمع كاماو يتحدث كثيرا من قبل:

- ربما...

- بعض الأوروبيين أفضل من الأفارقة...

أُعجِب نجوروغي بهذا الكلام أيضا. تابع كاماو:

- لهذا السبب تسمع أبي أحيانا يقول بأنه يفضل العمل مع الرجل الأبيض، لأن الرجل الأبيض هو الرجل الأبيض. أما الرجل الأسود الذي يحاول أن يكون رجلا أبيض يصبح شريرا ولئيما.

نجوروغي لم يفهم كاماو بشكل تام، لكنه أشفق على أخيه وعاهد نفسه بألا يصبح نجارا. التعليم هو الشيء الوحيد الجيد.

حاول أن يغير دفة الموضوع:

- أمي ستحكي لنا قصة.

- أوه... حقا؟

كلاهما يحبان الاستماع إلى القصص، فهي تعد وسيلة ترفيهية شائعة في عائلتهما. كان كوري راويا جيدا مثل نغوثو، قادر على جذب انتباه كل المجتمعين وجعلهم يستمعون ويضحكون. لكن بورو - الذي شارك في الحرب - لا يعرف الكثير من قصص القبيلة. كان يفرط في الشُرِب ودائم الحزن والانعزال. لا يتحدث كثيرا عما كابده في الحرب إلا إذا كان في حالة

سُكِر أو استياء من الحكومة والمستوطنين؛ "لقد قاتلنا من أجلهم، ومن أجل إنقاذهم من أيدي إخوانهم البيض" ونادرا ما يتحدث عن المعركة الفعلية أو يلمح إلى موت موانغي. عُرف عنهما أنهما محبين لبعضهما قبل الحرب، وطالما قيل أن الحب بين الأخوة أمر غير طبيعي وبلا جدوى. كان كل من بورو، وكوري، وكاماو أبناء نيري، الزوجة الأولى لنغوثو. أما موانغي الذي مات في الحرب فهو الشقيق الوحيد لنجوروغي. لكنهم يتصرفون جميعا كما لو أنهم من أم واحدة. كان كوري يعمل في مقهى شاي إفريقي في الفندق الأخضر "جرين هوتل"، والذي كان مكانا ملوثا يملأه طنين الذباب، ورائحة العفن عالقة في جوه كالسحاب المتكاثف. لكنه كان مكانا مشهورا جدا لأن فيه تلفازًا. كان نجوروغي يترقب عودة كوري محملا بشائعات القرية وأخبار البلاد كلها. على سبيل المثال، حين عاد جومو من بريطانيا كان كوري هو من أطلع بيتهم بالخبر، كان البيت يُعد مكانا رائعا خاصة في المساءات التي يجتمع فيها جميع الأخوة وبعض فتيات وفتيان القرية، حيث يتحلقون حول الموقد في دائرة كبيرة وهم يثرثرون ويضحكون ويلعبون. ولكم تاق نجوروغي إلى اليوم الذي يصبح فيه رجلا لأنه سيحظى بحرية الجلوس مع الفتيات الكبيرات المختونات ولمسهن كما يفعل الشباب الذين رآهم.

لكن إخوته لا يأتون إلى البيت بعض المرات فيصبح البيت مضجرا. إلا أن أميهما ترويان القصص وأيضًا يفعل نغوثو إذا كان في مزاج جيد.

قال نجوروغي حالما وصلا البيت وقد أظلمت السماء:

- أمنا الكبيرة تريدك.

في حين كانت نيري تُنادى "أمنا" أو "أمي الكبيرة"، كانت نيوكابي الزوجة الأصغر لنغوثو تُنادى "أمي" فقط، وكانت هذه العادة متّبعة ومقبولة

عند الجميع.

- ماذا تريد؟

- لا أعرف.

كان كاماو يهم بالتحرك، ونجوروغي وقف يشاهده بصمت ثم رفع صوته:

- لا تنسى أن تأتي إلى كوخنا، أنت تذكر القصة.

فأجاب كاماو:

- نعم.

وبدا صوته واهنا في الظلام. في المساء ذهب إلى كوخ نيوكابي.

- أخبرينا القصة.

قالت نيوكابي:

- لا تكن مزعجا.

قال كاماو ممازحا نيوكابي:

- إنها امرأة سيئة، لو كنت مكان أبي ما تزوجتها.

وبدت ممازحته هذه الليلة مصطنعة، فلم تثر الضحك.

- أوه، لكنه لم يستطِع مقاومتي.

قال نغوثو الذي دخل الكوخ بعد ذلك:

- هذا غير صحيح، آه لو رأيت مدى سعادتها حين طلبت يدها، لم يكن أحد راغب فيها فأشفقت عليها.

- لقد رفضت كل الشباب الذين تقدموا لي، وكان والدك سيموت لو رفضته.

قال نغوثو:

- لا تصدق كلمة واحدة مما قالته.

وبدأ في تناول الطعام الذي قُدم له. ولبعض الوقت كان هناك صمت

مربك؛ فالأولاد لم يعتادوا على المزاح في حضور والدهم. كسر نجوروغي الصمت قائلا:

- احكي لنا قصة، لقد وعدتنا... أليس كذلك؟

قالت مبتسمة وهي تنظر إلى زوجها والسعادة بادية عليها:

- أيها الأولاد، أنتم لا تطلبون من والدكم أن يحكي لكم قصة، لذا فالليلة هو من سيروي قصة.

- لو تحضرون في مجلسي جميعا لحكيت لكم قصة أو قصتين.

ورغم أن نجوروغي يهاب والده إلا أنه يشعر بالسعادة أثناء الاستماع إليه

- هبت ريح بينما السماء تمطر، وتبرق، وترعد بشدة. واهتزت الأرض والغابات حول كرينياغا. ودب الخوف في حيوانات الغابة التي خلقها الله. اختفى ضوء الشمس واستمر هذا الأمر لعدة أيام؛ لذا غرقت الأرض كلها في الظلام. ولأن الحيوانات لم تستطِع التنقل بقيت في مكانها تئن مع الريح. بهتت النباتات والأشجار، قال لنا كبار القبيلة إن كل شيء مات عدا صوت الرعد ظل مدويا كأنما يجتث الحياة. كانت تلك الليلة مظلمة لدرجةٍ ليس بوسعك تقديرها، لا يمكنني أو يمكنك تخيل ذلك السواد المطبق الذي لا يمكن لأشعة الشمس اختراقه. ولكن في الظلمة وعلى أطراف كرينياغا نمت شجرة صغيرة ثم كبرت وشقت طريقها رغم الظلام. كانت تريد الوصول للضوء والشمس. هذه الشجرة بقيت حية وظلت تعلو وتعلو باعثة الدفء الغامر كشجرة مزهرة، أتعرف شجرة مقدسة في ليل مظلم يعصف فيه الرعد والنواح.

كانت هذه شجرة الله، «موكوييو». أنت تعرف الآن أنه في بداية الأمور لم يكن هناك سوى رجل واحد «جيكوي» وامرأة واحدة «مومبي». ووُجدا

أول مرة تحت شجرة «موكوييو»، وما إن وُجدا حتى طلعت الشمس وتبدد الظلام، وحين أشرقت الشمس ونشرت دفئها الذي بعث الحياة والنشاط في كل الأشياء، وهدأت الريح وانقطع الرعد والبرق، وانتهت حيرة الحيوانات وتحركوا من أماكنهم، وسكن أنينهم وحيوا الخالق وجيكوي ومومبي، الخالق الذي يُدعى مورونيجو - وهو من أخذهما من جبله المقدس إلى بلد التلال بالقرب من سيريانا وأوقفهم على منحدر كبير - قبل أن ينقلهم أخيرا إلى موكووروي وجاتانغا التي سمعت عنها كثيرا. لكنه أراهما الأرض كلها... نعم يا أولاد، الله أظهر لجيكوي ومومبي الأرض كلها وقال لهم:

«هذه الأرض سلمتها لكم، يا أيها الرجل وأيتها المرأة، إنها لكما لتحكمانها بأمان وتضحية في سبيلي أنا، إلهكم، تحت شجرتي المقدسة...»

كان هناك شيء غريب في عيني نغوثو بدا وكأنه قد نسي كل من كانوا حاضرين معه، كاماو ونجوروغي وبورو وكوري وبعض الشبان والشابات الذين حضروا لقضاء ساعات الليل لسماع القصص. بدا كمن يفصح عن سر لأول مرة، لكن لنفسه. بورو يجلس في الزاوية ولا يمكن رؤية تعابير وجهه فهو لم يتحرك بتاتا وظل يحدق في والده. كان الأمر كما لو أن نغوثو وبورو هما الوحيدان اللذان كانا هناك منذ بداية حدوث تلك الأشياء. يمكن لنجوروغي أن يتخيل المشهد. رأى الشمس صاعدة تشرق وسط الظلام، ورأى تلاشي الخوف والحزن والرعب في عيون الكائنات الحية من أثر دفء الشجرة المقدسة. إنه عالم جديد يجب على الرجل والمرأة أن يُكثرا الحمد للذي جعلهما يسيران في المملكة الجديدة مع ميوروانجو. تمنى لو أنه كان واقفا هناك بالقرب منه في المكان المقدس ليستكشف الأرض كلها.

لم يسع نجوروغي إلا أن يصيح:

- وأين ذهبت هذه الأرض؟

فتوجهت أنظار الجميع إليه.

- أنا كبير الآن، لكنني أيضا طرحت هذا السؤال في يقظتي ونومي: «ما الذي حدث يا ميورونجو للأرض التي أعطيتنا؟ أين هي؟ يا خالقنا أين ذهبت أرضنا الموعودة؟» تعتريني رغبة أحيانا في البكاء أو إيذاء جسدي للتخلص من اللعنة التي أخرجتهم من أرض الأجداد. وسألته: «يا ميورونجو، هل تركت الأطفال عراة؟» أنا سأخبرك، كان هناك جفاف كبير أرسل عبر الأشرار إلى الأرض، الذين لابد أن شعروا بالغيرة من رخاء أطفال الواحد العظيم. ولكن ربما نسي أبناء مومبي أيضا أن يحرقوا ضحية لميورونجو. ولذلك لم يذرف دموعه المباركة كي تنمو المحاصيل. ولذا أحرقت الشمس كل شيء. ثم انتشر الطاعون فماتت الماشية، وتقلص عدد الناس، ثم جاء الرجال البيض كما تنبأ من قبل موغو وا كيبيرو وغيكيو الرائي الكبير. لقد جاء من بلاد التلال البعيدة، بعيدا من هنا، لقد أخبر موغو الناس عن مجيء الرجال البيض وحذَّر القبيلة. فجاء الرجال البيض واستولوا على الأرض، ليس كلها في بداية الأمر، ثم حدثت الحرب الكُبرى الأولى كنت شابا حينها، أي صبي مختون أيضا، وأُخذنا بالقوة، لقد شيدنا الطرق ونظفنا الغابات لتمكين الرجل الأبيض المقاتِل من التحرك بسرعة كبيرة. انتهت الحرب وكنا متعبين، عدنا إلى ديارنا منهكين ولكن مستعدين لأي مكافأة يقدمها لنا البريطانيين، ولكن أكثر من هذا أردنا العودة إلى التربة وغمرها بالغلة، كي نعمرها لا كي ندمرها. ولكن يا للأسف ذهبت الأرض. والدي والكثير من الناس غادروا أرض أجدادنا، ومات والدي وحيدا، رجل فقير في انتظار رحيل الرجال البيض. وهذا ما قال موغو أنه سيحدث. الرجل الأبيض لم يغادر،

مات هو كموهوي على هذه الأرض بالذات التي تعود ملكيتها إلى شاهيرا قبل أن يبيعها إلى جاكوبو. إنني نشأت فيها، ولكن العمل... (وهنا أدار نغوثو وجهه للنظر في جميع الوجوه الساكنة ثم أكمل) ...العمل على الأرض التي ينتمي إليها أجدادنا...

قال بورو بصوت مبحوح لكن واضح:

- هل تقصد الأرض التي عليها مزارع هولاندس؟

- نعم هي الأرض ذاتها. لقد أراني إياها والدي كلها، لقد عملت هناك أيضا بانتظار تحقق النبوءة.

كسر كوري الصمت الذي تلا جواب نغوثو قائلا:

- وهل تظن أن هذه النبوءة قد تتحقق يوما؟

- لا أعرف، وفي بلاد التلال حيث يوجد التلال والهضاب متجاورة معا مثل الأسود، ظهر رجل ظن الناس أنه الرجل الذي أرسل ليطرد الرجال البيض لكنه قتل على يد الأشرار، لأنه قال يجب أن يقف الناس بعضهم إلى بعض، لقد انتظرت النبوءة وقد لا تتحقق في حياتي، ولكن يا ميورونجو أتمنى أن يكون ذلك ممكنا.

سعل أحدهم وحل الصمت، شاب في الزاوية حاول أن يلقي نكته حول مجيء الرجال البيض وما اعتقده الناس حول لون بشرتهم فلم يصغِ إليه أحد. ضحك وحده ثم توقف. بالنسبة لنجوروغي كان ذلك بمثابة إعلان صادم، بأن يعرف أن الأرض التي يسيطر عليها هوندلاس كانت ملكا لهم في الأصل.

فكر بورو في والده الذي قاتل فنتج عن ذلك أنه طُرد من أرضه، هو أيضا شارك في الحرب ضد هتلر، لقد ذهب إلى مصر والقدس وبورما ورأى

الكثير من الأشياء، ولكم نجا من الموت المحتم. لكن الشيء الذي لا يمكن أن ينساه هو موت أخيه غير الشقيق موانغي، من أجل من ولماذا مات؟ وحين شارفت الحرب على الانتهاء عاد بورو إلى البيت ولم يعد صبيا، بل رجلا ذا خبرة وأهداف، ليجد نفسه بلا عمل. لم يكن هناك أرض يستقر عليها حتى لو كان قادرا على ذلك. عندما استمع إلى هذه القصة، ظهرت كل هذه الأشياء في ذهنه مع غضب متزايد. كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يتركوا الرجال البيض أن يحتلوا الأرض دون أن يتصرفوا؟ ولماذا كان كل هذا الاعتقاد الخرافي بنبوءة؟ وبهمس بدا كأنه صرخة قال: اللعنة على النبوءة. نعم لم يكن ذلك سوى همس. قال لأبيه: كيف يمكنك أن تستمر في العمل عند رجل أخذ أرضك؟ كيف يمكنك أن تخدمه؟ ثم خرج دون انتظار جواب.

3

خرج نغوثو إلى العمل باكرا، لكنه لم يمر عبر الحقول كما هو معتاد. يحب نغوثو مواسم الأمطار حينما يخضر كل شيء وتزهر المحاصيل، وقطرات الندى تعلق على أوراق الشجر. ولكن الطريق الذي تبعه أربك مجرى الماء للزرع مما جعل الماء يتخذ طريقا آخر، وشعر بأنه ارتكب خطأ حين نسي أمرًا ما. ذات مرة ألحت عليه الرغبة في لمس قطرات الندى وفتح واحدة منها ليعرف ما يختبئ داخلها، كان يرجف مثل طفل، ما أن لمسها حتى تلاشت وأحس بالرطوبة، شعر بالخجل وغادر. في بعض الأحيان كان ممتنا لمورونغو دون سبب واضح، حين يمر بهذه الحقول المزروعة وحيدا، والبلاد كلها في حالة سكينة أشبه بسكينة الموت.

في هذا الصباح مشى ناحية الطريق، الطريق الكبير المسفلت، الطويل والفسيح، الذي ليس له بداية ولا نهاية إلا أنه يوصل إلى المدينة. مرت السيارات بقربه، رجال ونساء يثرثرون وهم في طريقهم إلى العمل، بعضهم في المنطقة المستوطنة والبعض الآخر في مصنع الأحذية. لكن نغوثو لم يكن منتبها لكل ما يجري حوله، لماذا تصرف على هذا النحو أمام كل هؤلاء الأولاد؟ أحدث صوت بورو جرحا عميقا بداخله، قطَع جميع سنوات الوحدة المنتظرة، ربما كان هو وآخرون قد انتظروا طويلا جدا، فيخشى الآن أن يتخذوا هذا

الأمر ذريعة للتكاسل، أو ما هو أسوأ، الغدر.

لقد جاء إلى المتاجر الهندية منذ سنوات حين كان يعمل فيها، كان ذلك منذ وقت طويل قبل الحرب الثانية، كان يعمل عند رجل هندي يدين له دائما بأجر لمدة شهر. وكان أمرا متعمدا، حيلة لإجباره على العمل ضمن العمالة الهندية بشكل دائم. لأنه إذا ترك العمل سوف يخسر راتب شهر كامل. وفي النهاية كان عليه أن يخسره. وفي ذلك الوقت ذهب للعمل لدى السيد هولاندس كصبي حرث. في البداية كان يقوم بعمل كل شيء، بداية من العمل في مزارع الشاي وحتى تنظيف البيت الكبير وحمل الحطب.

مر عبر المتاجر الإفريقية بالقرب من محل الحلاقة، أكمل طريقه حتى وصل إلى ذات المكان الذي عمل فيه لسنوات طويلة، قبل أن تأخذ الحرب الكبيرة الثانية ولديه، ليموت إحداهما ويتغير الآخر.

كان السيد هولاندس مستيقظا، فهو لا ينام كثيرا، ليس مثل زوجته التي تظل في سريرها حتى العاشرة صباحا، فلم يكن لديها ما تفعله. كان يبدو على السيد هولاندس لمحة غموض، لم يستطِع نغوثو أن يفهمه أبدا.

- صباح الخير يا نغوثو.

- صباح الخير يا سيدي.

- أقضيت ليلة طيبة؟

- نعم يا سيدي.

كان نغوثو هو الرجل الوحيد الذي يحييه السيد هولاندس بهذه الطريقة التي لا تتغير أبدا. يتحدث وكأنه ينظر لشيء مبهم وكأنما عقله منشغل بأمر كبير. وأيا كان ما يستحوذ على كامل انتباهه إلا أنه دائما يوجه ذهنه ناحية المزرعة. كانت حياته وقلبه فيها. كل شيء بالنسبة له محسوب بما له علاقة

بالمزرعة. حتى زوجته تهمه بقدر إدارتها لشئون المنزل حتى يقوم بعمله بكفاءة دون قلق، فقد ترك لها حرية إدارة المنزل، من دون أن يعرف شيئا مما يحدث فيه. وإذا ما قام بتوظيف شخص ما في المنزل فبطلب من زوجته لصبي إضافي. وإذا ضربت صبيا وأرادت فصله لاحقا، ما أهمية ذلك؟ إنه مجرد صبي أسود. لا يخطر بباله أن يعرف أوضاع خدمه أبدا. الرجل الوحيد الذي قاوم رغبة زوجته في فصله هو نغوثو. لم يعرب السيد هولاندس عن مشاعره تجاه نغوثو لكنه يحب أن يراه يعمل في المزرعة، اللطف الذي يلمس به الرجل العجوز التربة، والطريقة التي يعتني فيها بأوراق الشاي الصغيرة وكأنها ملكه. نغوثو جزء كبير من المزرعة لا يمكن فصله عنها. كما يمكنه أن يدير عمال المزرعة كما لا يمكن لشخص آخر أن يفعل، ولكن نغوثو جاءه في الوقت الذي كان يمر فيه بوضع مالي صعب. ومع مجيء نغوثو تحسنت أوضاعه وزادت ثروته.

السيد هولاندس رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ذو وجه بيضاوي ينتهي بذقن مزدوجة وله بطن كبير. يبدو مظهره العام كمستوطن كيني نموذجي، لقد أثرت الحرب العالمية الأولى على شخصيته، فبعد سنوات من الأمن في المنزل استدعي للتجنيد وذهب إلى الحرب بحماسة الشباب الذي تصوَّر أن الحرب مجد. ولكن بعد أربع سنوات من الدم والدمار المرعب شعر بخيبة أمل من تحقق السلام مثل بقية الشباب. كان عليه أن يهرب، كان شرق إفريقيا مكانا جيّدًا حيث تتوفّر دلائل كثيرة لبلد واسع مهيأ للغزو.

لفترة طويلة كانت إنجلترا تُعد دولة بعيدة. لم يكن يريد العودة بسبب ما يحمله من ذكرى. لكنه سرعان ما أحس بحاجته لزوجة. لم يستطِع أن يرتبط بزوجة من السكان الأصليين كما فعل البعض، فعاد إلى بلده غريبا

واختار أول امرأة صادفها، سوزانا. كانت فتاة صالحة، ليست قبيحة ولا جميلة، شعرت بالملل من الحياة في إنجلترا ولكنها لم تعرف ما الذي أرادت فعله أبدا. بدت لها إفريقيا مكانا جذابا، فتبعت عن طيب خاطر هذا الرجل الذي سيمنحها التغيير. لكنها لم تعرف ان إفريقيا تعني المصاعب والتخلي عن حياة أوروبا بالكامل. وبدأت تشعر بالملل مجددا حين كان السيد هولاندس غافلا عن مللها. لقد صدقها حين أخبرته أنه يمكنها أن تواجه الحياة في الأدغال.

لكن سرعان ما أصبح لديها ما يعزيها، أنجبت طفلها الأول، وحولت انتباهها لرعاية الطفل وشئون المنزل. استطاعت أن تبقى طوال اليوم في المنزل تلاعب الطفل وتتحدث معه، ووجدت متعة حلوة في توبيخ وضرب خدمها. وأنجبت فتاة بعد الصبي بيتر وصاروا ثلاثة. الأم، والابنة، والابن يبقون للمنزل، بينما الأب يظهر في المساء فقط.

كان من حسن حظهم أن منزلهم يقع بالقرب من نيروبي حيث يمكن للطفلين أن يذهبا إلى المدرسة، كان فخورة برؤيتهما يكبران معًا ويحبان بعضيهما البعض، وبطريقتهما الخاصة بادلاها الحب. لكن سرعان ما أعجب بيتر بوالده، وأصبح السيد هولاندس وابنه يسيران معا بين الحقول. لم يكن السيد هولاندس عاطفيا، لكن وجود شخص يمكن ان يرث مزارعه أيقظ قلبه. ويوما بعد يوم أصبح رجل العائلة، وبمرور السنين تصالح حتى مع إنجلترا التي هرب منها. وأرسل طفليه للدراسة في إنجلترا ثم أخذته الحضارة الأوروبية ناحيتها من جديد. كان على ابنه أن يذهب إلى الحرب.

هنا فقد السيد هولاندس كل إيمانه، حتى تلك اللمحات التي أخذت تعود على استحياء، وأخذ يدمر نفسه مرة أخرى. لكن جاء إلهه - الأرض

- لإنقاذه، فألقى فيها كل جهده وطاقته. بدا أنه يعبد التربة، كان يمضي عدة أيام دون فعل شيء سوى شرب بعض أكواب الشاي، كان الأمر الوحيد الذي يسره هو التفكير والتخطيط للأرض التي أعطاها حياته كلها. سوزانا بقيت وحيدة، تضرب الخدم وتقيل واحدا بعد آخر. لكن الله لطف بحالها وأنجبت ستيفن. ابنها الوحيد الآن. فبعد وفاة بيتر في الحرب تحولت ابنتها إلى التبشير.

يتحركان من مكان إلى آخر، رجل أبيض ورجل أسود، يتوقفان هنا وهناك، يقومان بفحص أوراق الشاي الفاخر أو يقتلعان الأعشاب الضارة، كلاهما معجبان بهذه المزرعة. لأن نغوثو يشعر بالمسئولية نحو أي شيء يحدث لهذه الأرض. لقد كان مدينا للأموات وللأحياء ولمن سيولدون من سلالته بالحفاظ على الوفاء لهذه الأرض الزراعية. يشعر السيد هولاندس بشيء من النصر كلما مشى على الأرض كلها. كان وحده المسئول عن ترويض هذه الوحشية المنفلتة. وصلا عند مرتفع من الأرض ووقفا عنده وانحدرت الأرض رويدا قبل أن ترتفع ناحية التلال، هناك يمكن لنغوثو أن يرى المحمية الإفريقية.

سأل السيد هولاندس وهو شارد الذهن:

- هل تحب هذه الأرض كلها؟

كان حب الأرض قد استحوذ على قلبه.

قال نغوثو مؤكدا:

- إنها أفضل أرض في البلاد كلها.

وقد عنى ذلك.

تنهد السيد هولاندس، متسائلا إن كان بإمكان ستيفن أن يديرها من بعده:

- لا أعرف من يمكنه أن يديرها من بعدي...

قفز قلب نغوثو، هو أيضا يفكر في أولاده، هل ستتحقق النبوءة قريبا؟

- هل ستعود إلى...

فأجاب السيد هولاندس بصوت مرتفع دون داعي:

- لا.

- الوطن... موطنك...

- موطني هنا.

تحير نغوثو، ألن يغادر هؤلاء الناس أبدا؟ ولكن ألم يقل الرائد القديم جاكويويو أنهم سيعودون إلى ديارهم بالطريقة التي أتوا بها.

واستمر تساؤل السيد هولاندس: أيفعلها ستيفن حقا؟ إنه ليس مثل بيتر. وشعر بالألم ومرارة الفقد.

- لقد أخذته الحرب بعيدا.

لم يكن يعرف نغوثو أبدا أين ذهب الابن الآخر ففهم الآن، لقد أراد أن يخبره عن ابنه وتمنى لو قال له: «لقد أخذته أنت بعيدا عني» لكنه ظل صامتا. اعتقد هو أن السيد هولاندس لا يحق له أن يشتكي لأنها حربه.

4

تفوق نجوروغي في مادة القراءة بالمدرسة. اعتاد أن يتذكر الدرس الأول، حين وقف المعلم أمامه كان قصيرا وذا شارب قصير مولع بلمسه ومداعبته، كان يُعرف باسم «إيساكا»، وهذا اسمه المسيحي وهو تحوير لاسم «إسحاق». نادرا ما يعرف الأولاد اسم عائلة المعلم. انتشرت العديد من القصص عن إيساكا، قال البعض أنه ليس مسيحيا صالحا، وهذا يعني أنه يدخن ويشرب ويواعد النساء، أشياء لا يتوقع أن يفعلها معلم في مدرستهم. لكن إيساكا كان رجلا مرحا ويحبه الأولاد وأعجب نجوروغي بشاربه. وقيل إن إيساكا يحرك شاربه بشكل مزعج كلما تحدث مع المعلمات. وكان هو مصدر ثرثرة مستمرة للأولاد حين يكونوا مجتمعين وحدهم. عندما جاء المعلم وكتب علامة غريبة A على السبورة كان لا معنى لها عند نجوروغي والآخرين..

قال المعلم:

- إيه.

فرد الطلبة:

- إيه.

وكررها المعلم مرة أخرى فأعادوها. شعر المرء أن السقف الحديدي المسنن يتصدع.

كتب المعلم علامة أخرى E وقال:

- إي...

فرد الطلبة:

- إيييي

كان الصوت يبدو لطيفا ومألوفا. حتى أن أحد الطلاب صاح:

- إيييي، إييي

قال المعلم:

- I آي.

فرد الطلبة:

- آي.

ثم كررها المعلم:

- آآي

فأعادوها:

- آآآآي.

ثم قال المعلم إن هذه طريقة جيكويو في الاستئذان بالدخول: «هل يمكنني أن أدخل؟» فضحك الأولاد. كانت طريقته ظريفة وهو يقول ذلك. ثم كتب المعلم علامة جديدة على السبورة وشعر نجوروغي بنبضات قلبه تتسارع، ها هو يتعلم فعليا، لديه الكثير ليخبر به والدته.

المعلم:

- O آوو.

الطلبة:

- آوو...

كتب المعلم حرفا آخر **U**:

- يوو.

الطلبة:

- يووو.

سأل المعلم:

- ماذا يقول النساء حين يرين خطرا؟

نظر الأولاد نظرة انتصار ناحية الفتيات:

- يووو.

ضحك جميع الطلبة، قال المعلم والطلبة معًا:

- يووو.

سأل المعلم:

- أي حيوان يقول ذلك.

رفع طالب يده وقبل أن يتمكن من الإجابة صاح الطلبة:

- الكلب.

وعم الضحك الفصل مرة أخرى مع بعض التمتمات المتذمرة.

المعلم:

- ماذا يفعل الكلب؟

وهنا ظهر خلاف، صرخ البعض أنه يقول «يوويوو»، والبعض الآخر أشاروا إلى أنه ينبح.

المعلم:

- الكلب ينبح.

الطلبة يرددون:

- الكلب ينبح.

المعلم:

- ماذا يقول الكلب حين ينبح؟

الطلبة:

- يو يو يو.

ومنذ ذلك اليوم أصبح اسم المعلم «يو».

أحب نجوروغي تدريبات القراءة هذه. خاصة جزء تكرار الكلام، والضحك والصياح بصوت موحد. وحالما وصل البيت حاول أن يعلّم كاماو. ولكن كاماو استاء من الطريقة، فتخلى نجوروغي عن الفكرة.

قالت له مويهاكي:

- أتظل وحيدا لتتجنبني؟

شعر نجوروغي بالخجل. ما زال يتذكر ذلك اليوم الذي رأتهما فيه والدته يلعبان على التلة. لم توبخه لكن صمت الأم هو أسوأ أنواع العقاب، لأنه يثير خيالات المرء عما يمكن أن يدور في عقلها. ومع ذلك أراد نجوروغي أن يظهر مؤدبا ومحترما في عيني مويهاكي. نطق أخيرا بشيء من الحياء:

- أنت تخرجين متأخرة دائما.

ثم سارا معا فقد انتهى وقت المدرسة للتو. وأثناء سيرهما أخذا يشاهدان الطيور وهي تحلق بين الحقول.

قطعت مويهاكي الصمت:

- لا، أنا لا أخرج متأخرة ولكنك تتجنبني.

وبعد لحظات من الصمت أردفت:

- هل يضربك والداك؟

نجوروغي:

- لا، ليس دائما، حين أرتكب خطأ فقط.

تساءلت مويهاكي كيف يمكن لهذا الصبي أن يقترف خطأ. إنه يبدو طيِّعا، ومنعزلا، ولا يتأخر في الرجوع إلى البيت.

أكمل نجوروغي:

- لماذا تسألين؟

- حسنا، إذا كانا لا يضربانك فهذا يفسر سبب عدم خوفك منهما.

سألها بتعاطف:

- وهل يضربك أمك وأبوك؟

كانت تبدو رقيقة وصغيرة وحساسة، خلافا لكل الفتيات الشقيات.

- نعم، أحيانا، وحين لا تضربني أمي فهي توجه لي كلاما سيئا يؤلمني أكثر من الضرب. أنا أخافها.

- نجوروغي أنا أخاف أبي وأمي أيضا.

لم يكن يريد انتقادهما أمامها.

دائما ما يتذكر الولد الهندي الذي لاطفه وأعطاه حلوى. كان حينها مع والدته، وفوجئ بهذا التصرف اللطيف من ولد هندي لأنه لم يظن أن الهنود لطفاء. أخذ الحلوى وكان على وشك أن يضعها في فمه حينما التفت إليه والدته صارخة:

- ألم تأكل شيئًا منذ سنة؟ هل أنت جشع لتأخذ أي شيء يعطيك إياه أي شخص حتى لو كان هنديا صغيرا قذرا؟

رمى نجوروغي الحلوى بعيدا. لكنه تألم لأن الولد رآه وهو يفعل ذلك. شعر بالألم وخشى أن يعود ليقول أي شيء له. لم يرجع، وبعد أيام عاد لنفس

المكان ولم يجد الولد هناك.

قال نجوروغي:

- هل تعتقدين أن الآباء دائما على صواب؟

- أنا أفكر أيضا في ذلك، لا أعرف، ولكن في بعض الأحيان ينتابك شعور أنك تعرف شيئا ما بداخلك، ألا ينتابك مثل هذا الشعور أحيانا؟

- بلى.

لم يرغب في أن يبدو جاهلا.

ثم ما لبثا أن نسيا والديهما وأخذا يضحكان ويلعبان قليلًا، لكن نجوروغي يبدو متحفظا بينما مويهاكي كانت أكثر مرحا؛ تقطف الزهور وتلقيها ناحيته، أراد أن يقوم بمثل ذلك لكنه لا يحب قطف الزهور المتفتحة، لأنها تفقد لونها. فقال لها:

- لنتوقف عن اللعب بالزهور.

- لكنني أحب الزهور.

مرا بالقرب من بيت السيد هولاندس. كان كبيرا وفخما. أكبر مما يمتلكه والد مويهاكي.

- أبي يعمل هنا.

- هذه أرض السيد هولاندس.

- أتعرفينه؟

- لا، لكن أبي يتحدث عنه، هو يزوره ويقول إنه أفضل مزارع في البلد.

- هل هما صديقان؟

- لا أعتقد ذلك، فالأوروبيين لا يصادقون الرجال السود، إنهم

متكبرين جدا.

- هل زرتِ المزرعة يوما؟

- لا.

- كثيرا ما آتي إلى هنا لرؤية أبي، هناك صبي في مثل طولي، لون بشرته ناصع البياض، أظنه ابن السيد هولاندس. لا تعجبني الطريقة التي يتعلق فيها بتنورة والدته، إنه شيء مريع. إلا أن عيناه كانتا مثبتتان عليَّ، يبدو فضوليا قليلا. في المرة التالية كان لوحده حين رآني، وقف ومشى باتجاهي وخفت لأنني لا أعرف ما يريد فركضت، وبقي هو واقف يراقبني ثم عاد أدراجه. ثم صرت كلما ذهبت إلى هناك أتأكد إنني قريب من أبي.

- هل يرغب في التحدث معك؟

- لا أعلم، ربما أراد التشاجر معي إنه مثل أبيه كما تعرفين.

وتذكر نجوروغي القصة التي أخبرهم بها نغوثو، لكنه لم يخبر مويهاكي بها كما لو أنها سره.

- كل هذه الأرض للشعب الأسود.

- نعم، لقد سمعت أبي يقول ذلك، لو كان الجميع متعلمين لما أخذ الرجل الأبيض هذه الأرض كلها. أتساءل لماذا لم يتعلموا جماعتنا القديمة، أعنى اللذين ماتوا من جماعتنا حين جاء الرجل الأبيض؟

- لم يكن هناك أحد يعلمهم اللغة الإنجليزية.

قالت بريبة:

- نعم بالفعل قد يكون الأمر كذلك.

- هل يدرسون صفك اللغة الإنجليزية؟

- أوه لا، يدرسون اللغة الإنجليزية في المستوى الرابع فقط.

- هل يتحدث أبوك اللغة الإنجليزية؟

- نعم أظن ذلك.

- أين تعلمها؟

- في مكان البعثة... سيريانا.

- أظن أنك سوف تتحدثين الإنجليزية قبلي.

- لماذا؟

- أنتِ تسبقينني بصف.

أخذت تفكر لبضع دقائق. ثم ابتهجت فجأة وقالت:

- سوف أعلمك...

لم يعجب نجوروغي ذلك لكنه لم يقل شيئا.

في السنة المقبلة سوف يترقى إلى الصف الثالث ويطلق عليه «المستوى الأول». حيث أن الصفين الأوليين يعدان فصلان تمهيديان للمبتدئين، وجده نجوروغي أن الصف الثاني للمبتدئين غير ضروري بالنسبة له. المستوى الأول هو الذي سوف تلتحق به مويهاكي أيضا، استطاع نجوروغي اللحاق بها وكان سعيدا بذلك.

قبل افتتاح المدارس للعام الجديد ذهب نجوروغي مع كاماو إلى الغابة بعد بحث عقيم عن الظباء، سأل نجوروغي كاماو:

- لماذا لا تلتحق بالمدرسة حقا؟

قال كاماو ضاحكا:

- دائما تسأل هذا السؤال.

لكن نجوروغي بقي جادا. كان يعتقد دائما أن التعليم أفضل شيء يمكن أن يحصل عليه الفتى، كأنها نهاية الوجود. وأراد أن يذهب الجميع

إلى المدرسة.

واصل كامو هازًا رأسه:

- لا ...

سأل نجوروغي:

لماذا؟ نجوروغي

- الآن تتظاهر بعدم معرفتك الإجابة، ألا ترى وضع بيتنا؟ الرجل الذي لا يملك أرضا عليه أن يتعلم حِرفة، أبي ليس لديه شيء، ولذا ما أقوم به هو المهم، إذا لم يكن نجانغا أنانيا فقريبا سأصبح نجارا بارعا. وقد أكون غنيا وحينها يمكننا جميعا مساعدتك لتستمر في الدراسة، دراستك من أجلنا كلنا. أبي قال الكلام نفسه، وأضاف إنه حريص على أن تكمل تعليمك، فأنت حامل النور إلى بيتنا. التعليم هو نبراس كينيا. وهذا أيضًا ما قاله جومو.

كان نجوروغي قد سمع جومو عندما أتى من وراء البحار، وتوافد العديد من الناس للقائه في نيروبي. فكر نجوروغي أن بإمكانه أن يواصل تعليمه مثل جومو، وأن يعبر البحر ليصل إلى أرض الرجل الأبيض. فقد أوشك شقيق مويهاكي على الذهاب إلى هناك.

في المساء نظر نغوثو ناحية نجوروغي وسأله:

- متى ستبدأ المدرسة؟

- يوم الإثنين.

- آآآه.

تنهد نغوثو محدقا في الفراغ. بينما كانت نيوكابي تعد طبقا من الإيرو[5].

---

5 طبق كيني يحتوي على البطاطس المهروسة مع البازلاء والذرة. (المترجمة).

قال نغوثو:

- التعليم هو كل شيء.

ومع ذلك يراود خاطره بعض الشك بخصوص ذلك. لأنه يعرف في أعماق قلبه أن الأرض هي أهم شيء، والتعليم جيد لأنه سيؤدي إلى استعادة الأرض المفقودة.

- يجب أن تتعلم لتفادي الظروف التي نعيشها، إنه طريق صعب، فلا يمكن لرجل أن يعيش دون قطعة أرض.

نادرا ما يشتكي نغوثو، لقد عاش كل حياته معتقدا بأن شيئا عظيما سيحدث، وهذا هو السبب الذي جعله لا يرغب في العيش بعيدا عن أرض أجداده، ولذات السبب يعمل بإخلاص لدى السيد هولاندس. حيث يعتني بالتربة وبكل ما زُرِع فيها بحذر شديد.

جاء ابنه، وبضربة واحدة جعله يشك في ولائه للسيد هولاندس والتربة، ومع هذا الشك أصبح الآن رجلًا عجوزًا يخشى ابنه، بورو الذي تغير بسبب الحرب. لقد شعر نغوثو أن الحرب تعاملت معه بقسوة. قُتل واحد والآخر يلومه.

قال ببطء لنفسه: «كيف ينظر السيد هولاندس للمزرعة!» لم يستطع نغوثو أن يفهم تعلق السيد هولاندس بالتربة. في بعض الأحيان يبدو تائها فيها وكأنه هارب من أمر ما. نجوروغي يستمع لوالده، مستشعرا الأمل الذي عُقِد عليه رغم حداثة سِنه. يعلم أن التعليم بالنسبة له سيكون تحقيق رؤية واسعة وذات أهمية كبرى، وهي رؤية مبنية على الأمل المعقود عليه، ليس من قبل والده فقط، بل من جانب والدته أيضا وإخوانه وحتى القرية. تخيّل المهمة الكبيرة المقدَّر له تحقيقها واتقد قلبه حماسة.

5

تنتصب تلة كبيرة نسبيًا خارج منزل نغوثو، تراكم القمامة لسنوات أظهر تلك التلة إلى حيز الوجود. إذا وقفت عليها نهارًا فستتمكن إلى حد ما من رؤية أرض جاكوبو الشاسعة، فهي تماثل مزرعة المستوطنين. كانت الأرض مليئة بأزهار القرحا والكثير من أشجار الأكاسيا. لقد كان جاكوبو محظوظا لأنه - ولسنوات طويلة - هو الإفريقي الوحيد المسموح له بزراعة أزهار القرحا. وقيل إنه اعترض طريق منح تصاريح مماثلة لأشخاص آخرين. كما لم يرغب المزارعون البيض الذين قاموا بزراعته بالسماح للمزارعين الإفريقيين بزراعة أي محصول نقدي[6] مثل أزهار القرحا، لأن ذلك قد يؤدي إلى خفض معايير جودة الإنتاج.

يقف نجوروغي على هذه الكومة كلما أراد أن يتحرى قدوم والدته أو أخيه من بعيد، ومتى ما رأى واحدا منهما ركض وساعده في حمل ما لديه أيًا كان. حتى لو كانت القادمة نيري أو أحد ابناءها، فعائلة نغوثو تتميز بانسجام أفرادها خلافا عن بقية الأسر متعددة الزوجات. نيري ونيوكابي تذهبان إلى الشامبا (السوق) معًا، وفي بعض الأحيان تتفقان أن تقوم إحداهما بمهمة ما، بينما الأخرى تقوم بالمهمة الأخرى. ويعزى هذا الأمر إلى نغوثو، عامود

6 المحصول الزراعي الذي يُزرع للبيع المباشر أي من أجل الربح.

البيت، فمتى ما كان للبيت عامود ثابت سوف تتماسك العائلة. كانت ليلة ظلماء حين وقف نجوروغي وكاماو على الكومة، النجوم المتلألئة في السماء بدت كعيون البشر. أخبرت نيوكابي نجوروغي ذات مرة أن النجوم ما هي إلا ثقوب صغيرة نرى من خلالها ضوء نار الرب، لكنه لم يصدق ذلك تماما.

- هل ترى تلك الأضواء البعيدة؟

- نعم.

قال نجوروغي وصوته يرجف قليلا:

- إنها نيروبي، أليس كذلك؟

أجاب كاماو بصوت حالم:

- نعم...

أخذ نجوروغي يتفحص الظلام وينظر إلى ما وراءه، بعيدا ترى أضواء كثيرة. عند التقاءها كان الضباب رماديا في السماء، ركز نجوروغي بعينيه في المشهد: نيروبي، المدينة الكبيرة، كان فيها السر الذي استدعى أخويه للذهاب بعيدا عن حضن الأسرة. الانجذاب لتلك المدينة الغريبة بعيدة المنال يوهنه. تنهد... لم يستطِع أن يفهم حتى الآن لماذا قرر أخويه الذهاب بتلك الطريقة.

- هل تعتقد أنهما عثرا على عمل؟

- كوري يقول إن الأعمال متوفرة هناك بكثرة.

- فهمت.

- إنها مدينة كبيرة...

- نعم... إنها... هي... مدينة... كبيرة.

- يذهب السيد هولاندس إلى هناك كثيرا.

- وجاكوبو أيضا، هل تعتقد انهما نسيا موطنهما؟

- أنا متأكد من أنهما لم ينسياه، لا أحد يستطيع نسيان موطنه.
- لماذا لم يتمكنا من العمل هناك؟
- هل تظن أنهما لا يريدان ذلك؟ أنت تعرف هذا المكان، حتى لو ذهبا إلى هناك فإنهما يعرفان أن الحصول على أجر فقط دون قطعة أرض لزراعتها لا يعني شيئا. انظر إلى هولاندس، لا يعمل لدى أحد ومع ذلك فهو فاحش الثراء وسعيد وذلك لأنه يملك أرضًا. وانظر إلى جاكوبو، إنه مثل هولاندس لأنه يملك أرضًا، لكن بورو لا يملك أرضًا. ولم يستطع الحصول على عمل، أنت تعرف كم هو مستاء من أبي لأنه يقول بسبب غباء آباءنا سُلبت منا الأرض. هل تعتقد أنه يمكن أن يبقى هنا؟ هذا المكان ليس لبورو.

فكر نجوروغي في ذلك وتمنى لو أنه في مكان يسمح له بتصحيح الوضع. لربما يمنحه التعليم القدرة على ذلك.

- كان بورو غريبا.
- كان غاضبا في كثير الأحيان.
- من أبي؟
- من الجيل القديم، ومازالت المحاولات مستمرة.
- محاولات استعادة الأرض؟
- نعم، قال أبي أن الناس ألحّوا في المطالبة بنيل حقوقهم منذ فترة طويلة. ذهب البعض في موكب إلى نيروبي بعد انتهاء الحرب الأولى للمطالبة بالإفراج عن زعيمهم المعتقل. أطلقت عليهم النار وتوفي ثلاثة منهم. كما ترى، ظن الناس أن الزعيم الشاب هو الذي سيتمكن من طرد الرجل الأبيض.
- أقال أبي ذلك؟
- نعم، لقد سمعته وهو يخبر بورو، أنت تعرف أبي يخشى بورو قليلا.

- وماذا قال بورو؟

- لا شيء، جلس هناك ساهما يفكر في أمر ما. بورو شخص غريب. تقول أمنا الكبرى أن الحرب غيرته. ولكن البعض قالوا إن الأمر يتعلق بأخينا الآخر، الميت.

- موانغي؟

- نعم، إنهم قالوا بأن البريطانيين هم من قتلوه. ولكن سواء كانوا البريطانيين أو غيرهم، فرجل أبيض هو من قتله.

- نعم.

ما زالا يثبتان نظرهما في الظلام نحو المدينة التي تحتضن الآن بورو وكوري. خشي كاماو ونجوروغي أن يفقدا الاثنين الآخرين هناك أيضا. وبهذا سينتهي التجمع المسائي مع فتيان وفتيات البلدة. ولكن بورو قال بوضوح أنهما سيعودان إلى البلدة من وقت إلى آخر.

- أنا أيضا أود مغادرة هذا المكان؟

سأل نجوروغي بعجل:

- لماذا؟

سيل من الأفكار هطل على نجوروغي عما سيفعله لعائلته لو كان يملك المال وأنهى تعليمه.

- مجرد حدس، ولكن يجب أولا أن أترك العمل لدى نجانغا.

- لم تكمل تدريبك لديه بعد.

- أعتقد أنني أعرف ما يكفي من النجارة للمضي قدما، أستطيع الآن أن اصنع كرسيا وسريرا وأشياء من هذا القبيل.

- وأين ستذهب؟

- إلى المنطقة المستوطنة، أو نيروبي.

شعر نجوروغي برغبة قوية في الإبقاء على كاماو قريبا منه. سوف يفتقده كثيرا.

- قد لا تحصل على عمل؟

- بلى سوف أجد عملا.

- ولكن هل نسيت الإضراب؟

- أوه.

- أنت تعرف الإضراب المقصود الذي يتحدث عنه أبي دائما.

- لا أدري، ولكن أعتقد أنها لأجل أشخاص مثل أبي.

- لكن أبي يقول بأن الإضراب لكل الناس الذين يريدون الحرية للشعب الأسود.

- ربما أنا لا أستطيع أن أصرّح.

سمعا نيري تناديهما ونزلا إلى أسفل الكومة وأثناء نزولهما تذكر نجوروغي شيئا، أراد أن يسأل عن الأرض.

- هل تعتقد أن ما قاله أبي بأن الأرض كلها ملك الشعب الأسود صحيح؟

- نعم بالفعل، الرجال السود لديهم أرضهم في بلاد الشعب الأسود، والرجال البيض لديهم أرضهم في بلدهم. إنه أمر واضح، لكنني أظن أنه قدر الله.

- هل هناك أشخاص سود في إنجلترا؟

- لا، إنجلترا للرجال البيض وحدهم.

- لقد تركوا بلادهم كلها من أجل سلب بضع فدادين نملكها؟

- نعم فعلا، إنهم لصوص.

- كلهم؟

- نعم، حتى السيد هولاندس.

- أنا لا أحب السيد هولاندس، ولا أحب الطريقة التي يتتبعني بها ابنه أبدا.

- حمل يركض خلف أمه.

شيء ما خطر في ذهن نجوروغي فقال:

- جاكوبو رجل سيء، هل تظن ان مويه...

توقف ثم سرعان ما غير الموضوع فسأل:

- من هو جومو؟

- يسميه بورو "موسى الأسود".

- مذكور في الكتاب المقدس؟

- لا أعرف.

- أظن أنني سمعت عن ذلك في الكتاب المقدس.

جلجل صوت نيري في الظلمة، فلم يبقَ كلام يُحكى.

في تلك الليلة بقي نجوروغي مستيقظا لبعض الوقت قبل أن ينام، لا يريد نجوروغي أن يصبح مثل والده عاملا لدى رجل أبيض، أو الأسوأ من ذلك، عاملًا لدى رجل هندي، لقد أخبره والده أن العمل شاق وعليه أن ينأى بنفسه عن ذلك الوضع، نعم إنه يأمل ذلك، يأمل في أن يصبح وضعه مختلفا ويساعد إخوانه، ودعا قبل نومه: "إلهي، هب لي أن أتعلم، لأساعد أبي وأمي وكاماو وبقية أخواني، أسألك بحق السيد المسيح، إلهي... آمين". ثم تذكر أمرا آخرا، فأكمل: "وساعدني يا رب في ألا تتفوق عليَّ مويهاكي في الفصل، يا رب". وغط في النوم حالما بالدراسة في إنجلترا.

دائما ما تُسر مويهاكي بوجودها مع نجوروغي، وتشعر بالأمان معه أكثر مما تشعره مع أخوتها الذين لا يكترثون لأمرها كثيرا. لقد وثقت فيه، وتحب أن تشاركه طريق العودة للمنزل. إنها ذكية جدا وقادرة على المنافسة حتى بين الأولاد. ونجوروغي الآن معها في الفصل نفسه ولا يمكنها أن تسأله عن الواجبات المنزلية. إنهم في المستوى الرابع وبدأوا في دراسة اللغة الإنجليزية. معلمتهم هي لوسيا شقيقة مويهاكي. يجلسون على مقاعدهم منتظرين وعيونهم على السبورة. فمعرفة اللغة الإنجليزية هي معيار تعلم المرء.

قف تعني روغاما.

المعلمة: أنا واقفة. ما الذي أفعله الآن؟

الطلبة: أنت واقفة.

المعلمة: مرة أخرى.

الطلبة: أنت واقفة.

المعلمة وهي تشير بإصبعها: أنت... لا... أنت هناك... نعم. ما اسمك؟

التلميذ: نجوروغي.

المعلمة: قف يا نجوروغي.

وقف، كان تعلم اللغة الإنجليزية يسير بوتيرة جيّدة ولكن ليس حينما يقف أمام كل العيون لتشاهده، وتعابير الوجوه ربما كلها منصبة عليه.

المعلمة: ماذا تفعل؟

نجوروغي بصوت ضعيف: أنت واقف.

المعلمة بشيء من الغضب: ماذا تفعل؟

تنحنح نجوروغي ومازال صوته ضعيفا: أنت واقف.

المعلمة: لا... لا...

اتجهت المعلمة ناحية الصف: بربكم... ماذا تفعل أنت، أنت؟
أحس نجوروغي بالارتباك الشديد.
أخذ الطلبة يرفعون أياديهم من حوله، شعر بالغباء أكثر وأكثر حتى تخلى عن محاولة الإجابة عن السؤال.
أشارت المعلمة إلى مويهاكي لتقف: ماذا تفعلين؟
أجابت مويهاكي وهي تميل برأسها ناحية أحد كتفيها: أنا واقفة.
المعلمة: أحسنتِ، هيا يا نجوروغي، ماذا تفعل هي؟
نجوروغي: أنا واقف.
ضحك التلامذة.
انزعجت المعلمة كثيرا وسألت الطلبة: ماذا تفعل هي؟
أخذوا يرددون: أنتِ واقفة.
المعلمة ما تزال غاضبة: لقد سألتكم ماذا تفعل هي؟
الطلبة يرددون بخوف وهدوء: أنتِ واقفة.
المعلمة: انظروا أيها الحمقى الأغبياء الكسالى، كم تحتاجون من الوقت كي تفهموا الأشياء؟ منذ الأمس ولم نتقدم في الدرس. إذا أتيت غدا ووجدتكم ترتكبون ولو خطأ واحدا سوف أعاقبكم جميعا أشد العقاب.
وبعد هذا التهديد الحاد خرجت من الفصل.
انزعج نجوروغي من نفسه بسبب الموقف السيء الذي كان فيه. يمكن الآن سماعه يحاول إخبارهم بما يجب أن يجيبوا عن السؤال: "إنها تقف"، لكن ولدا واحدا في الصف (أغبى من في الصف) وبخه:
- لماذا لم تتحدث حينما كانت هنا ما دمت ذكيا إلى هذا الحد؟
بعد بضعة أسابيع من التهديد والوعيد تمكن الأولاد من تعلم شيء

يفخرون به. نجوروغي يمكنه الآن أن يردد:

أنا واقف.

أنت واقف.

هي واقفة.

نحن واقفون.

أنتم واقفون.

هم واقفون.

إلى أين أنت ذاهب؟

أنا ذاهب إلى البيت.

نحن ذاهبون إلى البيت.

أشِر إلى السبورة... ماذا تفعل؟

أنا أشير إلى السبورة.

عندما يدخل المعلم الفصل يحييهم باللغة الإنجليزية: صباح الخير يا أولاد.

ويقف الطلبة جميعهم مرددين: صباح الخير يا سيدي.

في أحد الأيام جاءت امرأة أوروبية إلى المدرسة وكما هو متوقع، نظفوا المدرسة وكانت في أفضل حال، وعلموا الأولاد كيف يتصرفون. لم يرَ نجوروغي الأوروبيين عن قرب قط. كان يرهب بياض ورقة جلد هذه المرأة، تساءل ما الذي يمكنني أن أحسه حين ألمس جلدها؟ وحينما دخلت وقفوا جميعا بانتباه. وبعضهم فتح فمه استعدادا لإلقاء الرد على التحية المعهودة:

- مساء الخير أيها الأولاد.

- صباح الخير يا سيدي.

خذلوا لوسيا، شعرت بالرغبة في البكاء، ألم تعلمهم الجملة الصحيحة مرارا وتكرارا؟!

أوضحت الزائرة بما أنهم أنهوا الغداء والآن الساعة الثانية عشرة يجب أن يردوا بتحية ما بعد الظهيرة، ولأنها امرأة فيجب أن يخاطبوها بـ«سيدتي".

- أليس صحيح؟!

فأجابوا جميعا: حسنا يا سيدي!

صاحت لوسيا صياحًا هستيريًّا كمن يمكنها أن تقتل أحدهم: سيدتي.

- نعم يا سيدتي.

أعادت عليهم التحية مرة أخرى: مساء الخير.

- مساء الخير يا سيدتي.

ما زال البعض يتمسك بلفظ "سيدي"، لقد صار ذلك جزءًا من طريقتهم في التحية. حتى عندما يحيّي طالبا الآخر يكون جوابهم متبوعا بـ"سيدي". عندما رحلت المرأة الأوروبية ندم الأطفال على ما حدث. لكن لوسيا ضربتهم لتهدئة غضبها وعارها. وبعد ذلك عرفوا الفرق بين "صباح" و"مساء" وبين "سيدي" و"سيدتي".

- نعم سيدتي.

في طريقهما إلى البيت قال نجوروغي لمويهاكي:

- أتعرفين؟ لديَّ شعور بأنني رأيت تلك المرأة في مكان ما. متى؟ أين؟ لا أدري، إنه مجرد شعور.

ذهبا إلى مكان عمل نغوثو فقالت له:

- هل ما زلت ترى الصبي؟

- لا، أعتقد أنه يذهب إلى المدرسة.

- هل حاول التحدث معك مرة أخرى؟

- لا، لقد تجنبته، لكنه دائما وحيد.

- ربما ليس لديه إخوان أو أخوات.

- يمكنه أن يذهب ويلعب مع أولاد آخرين.

- أين؟

كانا قد مشيا بضع أمتار حين صرخ نجوروغي:

- لقد عرفت أين رأيت تلك المرأة، لقد رأيتها مرة أو مرتين في منزل السيد هولاندس. أعتقد أنها ابنتهم. قال أبي أنها امرأة مبشِّرة.

- نعم صحيح، لقد سمعت أبي يذكر ذلك أيضا.

- أتساءل لماذا تحولت إلى التبشير وهي ابنة الاستيطان؟

- ربما هي مختلفة.

"حمل يركض خلف أمه" خطر مثل كاماو على ذهنه، وأحس أنه ماهر.

ترك كاماو العمل لدى نجانغا وبدأ العمل مع نجار آخر في السوق الإفريقي. لم يذهب إلى نيروبي أو المنطقة المستوطنة كما ألمح. انتصر نجوروغي. لقد رأي أن كاماو أصبح صبيا كبيرا وهو الآن جاهز للختان. شاهده نجوروغي بخوف وهو يمشي مع رجال يبدو أنهم من الريكا، لكن هذا ليس ما كان يخشاه، قبل كل شيء حتى الآن هو لا يمشي معهم كثيرا، ما كان يخشاه أنهم يجرونه يوما إلى المدينة. فلقد دعاه الأخوين الآخرين. رغم أنهم يعودون للمنزل بانتظام إلا أنهم تغيروا، خاصة كوري. سوف يؤدي ذهاب كاماو إلى تفكك الأسرة النهائي وإنهاء الأمان الذي يشعر به المرء عند التفكير في البيت. كاماو هو رجل البيت، فهو يحمل عبء الأسرة على كتفيه بصمت. يذهب نجوروغي لرؤيته في السوق الإفريقي بعض الأحيان.

المكان الذي لا يتغير، رجال من جميع الجنسيات يتجولون فيه بين المقاهي والمجازر. يتسكعون لساعات. إن العمل الشاق في هذه الحياة جعله يخشى المستقبل الذي يحبسه في متجر بلا هدف ولا جهد. تمسك بالكتب وبأي شيء توفره المدرسة.

نجوروغي الآن صبي طويل القامة إلى حد ما، ذو شعر أسود، داكن البشرة وعيناه صافيتان واسعتان. تبدو ملامحه واضحة ومحددة ومناسبة ربما لصبي في عمره. التعليم بالنسبة له، كما هو الحال بالنسبة للعديد من أبناء جيله، يعد مفتاح المستقبل. ونظرا لأنه لم يستطِع أن يكوِّن صداقة مع أبناء جاكوبو باستثناء مويهاكي، لأنهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى التي بدأت ترتفع وتدرك نفسها، لجأ إلى القراءة. قرأ كل شيء وقعت عليه عيناه، والكتاب المقدس كان كتابه المفضل. كان يحب قصص العهد القديم، لقد أحب داوود وأعجب به، وغالبا ما كان يضع نفسه مكان هذا البطل.

جذبه سفر أيوب مع أنه يثير في قلبه الكثير من الألم. وأحب قصة الشاب يسوع وموعظته على الجبل من قصص العهد الجديد. خلص نجوروغي إلى وضع الثقة بالكتاب المقدس وتصوّره لحياة المتعلم في المستقبل التي ينسجم فيها الإيمان بعدل الرب. المساواة والعدالة موجودان في العالم، إذا قمت بعمل صالح وتمسكت بإيمانك بالله فإنك ستملك ملكوت السماوات. الرجل الصالح ينال ثوابه من الرب، والرجل السيء سيحصد ثمارا فاسدة. قصص القبيلة التي روتها له والدته عززت إيمانه بقيمة الكد والمثابرة. إن إيمانه بمستقبل عائلته وحتى قريته لم يرتكز على أمله في التعليم السليم قط، بل على إيمانه بإله الحب والرحمة الذي سار منذ زمن بعيد على هذه الأرض مع جيكويو وومبي أو أدم وحواء، ليس هناك فرق كبير بين جيكويو

وآدم أو مومبي وحواء. بالنسبة للرب فإن جميع الرجال والنساء تربطهم رابطة الأخوة الوطيدة. ومع كل هذا نما في قلبه شعور بأن شعب جيكويو الذين استولى على أرضهم الرجال البيض ليسوا سوى ذرية بني إسرائيل الذين قرأ عنهم في الكتاب المقدس. ومع أن الرجال كانوا أخوة، كان لدى السود مهمة خاصة للعالم لأنهم شعب الله المختار. وهذا ما يفسر قول شقيقه بأن جومو هو موسى الأسود. كلما كان مع مويهاكي يتوق لنقل بعض من هذه المعلومات إليها، إلا أن محاولته لشرح تلك الأشياء بالكلام باءت بالفشل. لذلك احتفظ بها جميعها لنفسه. يمشي وحيدا بين الحقول لا رفيق له سوى الليل.

6

منذ أن كان نجوروغي طفلا، رأى رجالا يزورون والده من وقت إلى آخر، لاحظ أن نغوثو مركز لكل شيء. وطالما هو موجود فيجب أن لا يحدث أيّ خطأ، وعلى هذا نشأ نجوروغي يخاف والده. ولديه إيمان ضمني به أيضا. الرجال الذين يأتون لرؤية نغوثو عادة ما يتوجهون إلى مجلسه، ولكن في بعض الأحيان يذهبون إلى بيت نيوكابي أو نيري. وهذا الأمر أبهج نجوروغي فهو يحب الاستماع إلى حديث البالغين. هؤلاء الرجال كانوا شيوخ القرية يتحدثون عن شئون الأراضي الزراعية. كما يُحضِر بورو وكوري رجالا إلى البيت في أيام عطلات الأسبوع إلا أنهم مختلفين عن شباب القرية. عادة يترك شباب القرية صدارة الحديث للشيوخ بينما هم يستمعون. ولكن من يحضرون مع بورو وكوري من المدينة الكبيرة يبدو أنهم يعرفون الكثير من الأشياء، فهم يهيمنون على الحديث. ولأن معظمهم كانوا في الحرب فهم متمكنين من مقارنة شئون الأرض هنا بالأراضي التي ذهبوا إليها. لا يمزحون ولا يضحكون كما يفعل الشباب عادة. وتعبس وجوههم حين يتحدثون عن الأراضي الأجنبية، والحرب، وبلادهم، والبطالة المنتشرة، والأراضي المسلوبة. ويستمع نجوروغي بحماسة إلى الحديث عن جومو فهو يشعر بتآلف مع هذا الشخص. لأن نجوروغي كان متأكدا من أنه قرأ عنه في العهد القديم. قاد

موسى بني إسرائيل من مصر إلى الأرض الموعودة، ولأن السود كانوا حقا بني إسرائيل لم يكن موسى سوى جومو نفسه. إنه لأمر جلي.

كما تحدث أولئك الرجال عن الإضراب، كل الرجال السود الذين عملوا لصالح الرجال البيض والحكومة سيُضرِبون عن العمل. كان لا بد أن يبرهن السود للحكومة والمستوطنين بأنهم ليسوا جبناء أو عبيدا، ولديهم أطفال بحاجة للطعام والتعليم. كيف يمكن للسود أن يكدحوا من أجل أطفال الرجال البيض ليتغذوا غذاءً جيّدًا ويرتدوا أجود الملابس ويتلقون تعليما جيدا؟

كيارى رجل قصير ذو لحية سوداء، كان متحدثا جيدا وجذابا. يمشي بصحبة بورو دوما، أثارت كلماته نجوروغي إلى درجة غريبة.

سأل رجل:

- لكن هل تعتقد أن ذلك سينجح؟

- نعم بالطبع، سوف يشارك الجميع في الإضراب، كل رجل أسود في كل مكان. حتى أولئك الذين يعملون في الشرطة والجيش سوف يضربون.

- وهل سنحصل فعلا على أجر مساو لأجور الهنود والأوروبيين؟

- نعم.

وأشار كيارى إشارة واثقة برأسه.

- كل السود سوف يتوقفون عن العمل. جميع الأنشطة التجارية في البلاد سوف تصل إلى طريق مسدود لأن البلاد كلها تعتمد على كدحنا. الحكومة والمستوطنون سوف يستدعوننا. ولكن يجب أن نقول لا... لا... أعطونا المزيد من المال أولا، عرقنا ودمنا ليس رخيصا نحن أيضا بشر، لا يمكننا العيش على خمسة عشر شلن في الشهر.

كبار السن وسكان القرية استمعوا باهتمام بالغ، لا يعرفون الكثير عن الإضراب. ولكن إذا كان هذا الأمر يعني المزيد من المال فهي فكرة جيدة. كان الصوت الرصين لكيارى مقنعا ومطمئنا. مما أشعر نجوروغي أن كلام كياري عزز في كل من حوله الشجاعة والإيمان.

- ماذا عن أولئك الذين يعملون لدى الرجال السود؟

- يجب ان نركز على الرجال البيض والحكومة، نحن السود أخوة.

نغوثو يعرف واحد أو اثنين لا يمكن اعتبارهما أخوة، لكنه لم يقل شيئا.

عندما أوى نجوروغي إلى فراشه تلا صلواته من أجل نجاح الإضراب. وتمنى أن يتحقق ذلك عاجلا. فإذا امتلك والده مالا كثيرا سوف يستطيع أن يشتري شاحنة مثل جاكوبو. ثم نام وهو يحلم بلحظة السعادة بالثروة والمتعة بعد الإضراب.

دعا السيد هولاندس جميع العاملين لديه، كان هذا أمرا غير معتادا، ولم يكن لديه الكثير لقوله لأنه لا يريد إضاعة وقته. لقد حذرهم فيما لو أضرب أحدهم فسوف يخسر عمله على الفور. كيف يسمح لهذا الإضراب اللعين بالعبث بأي جزء من مزرعته؟ حتى الحكومة لا تستطيع التدخل في شؤون مزرعته. يمكن للسود أن يوجهوا طلباتهم أو يعلنوا اعتراضاتهم عن أي شيء، ومن الواضح أن بعض الأمور هي من شئون الحكومة خارج مزرعته.

ويا للمفارقة، إنه - مع اقتراب الإضراب - يريد من الحكومة أن تتخذ إجراءً صارما ليعرف هؤلاء العمال مكانهم الصحيح. أنصت نغوثو إلى التحذير دون أي يبدو عليه أي انفعال، ولذا لا تستطيع أن يعرف المرء ما كان يفكر فيه حقا. فهو لم يقرر موقفه تجاه الإضراب بعد، ينتابه قلق بشأن نجاحه. فإذا فشل سوف يخسر عمله ويُستبعد من أراضي أجداده، كان

مخطئا، فالأرض له، ولا يمكن لأحد أن يعتني بها مثله. توجه نغوثو إلى المنزل مارا عبر المتاجر الإفريقية. كان الحلاق ما يزال في عمله وهو يتحدث عن الإضراب معظم الوقت. فلم يذهب نغوثو إليه. توجه مباشرة ناحية المنزل.

لم يرَ نجوروغي والده يتشاجر مع زوجتيه قط، حتى لو كان هناك خلاف بينهم لا يُسمح للأولاد بمعرفة ذلك. صُدِم نجوروغي حينما جاء من المدرسة ووجد نيوكابي تبكي. تذكّر بكاء والدته تذكُّرًا مشوّشًا لمرة واحدة ربما في فترة قحط الكسافا أو قبلها، ويتراءى له ذلك كالحلم الآن. ولكن هذه المرة لم يكن الأمر حلما، بقي نجوروغي ساكنا يخاف الدخول إلى المنزل. يقف نغوثو بقامته الرجولية منتصبا - رغم سنه - أمام نيوكابي، لم يستطع نجوروغي رؤية وجهها، لكنه لاحظ الدموع التي تبلله. اجتاحه الخوف وهو يشهد خلافا حقيقيا في المنزل الذي كان آمنا حتى حين.

- أنا الرجل في بيتي.

- نعم، كن رجلا واخسر عملك.

- سأفعل ما يحلو لي، ولن أتلقى أوامر من امرأة.

- سوف نجوع.

- تجوعون؟! هذا الإضراب مهم للشعب الأسود ويجب أن نحصل على أجور أعلى.

- ما الذي سيفعله الشعب الأسود لنا حين نجوع؟

- اخرسي... إلى متى تظنين أنني قادر على الكدح من أجل رجل أبيض وأطفاله؟

- لكنه يدفع لك المال، ماذا لو فشل الإضراب؟

- ليس لديَّ امرأة...

صاح صياحا هستيريا، فهذا الاحتمال أكثر ما كان يخشاه.

سيطر عليها ما أحسته من الخوف وعدم اليقين البادي عليه.

- ماذا لو فشل الإضراب، أخبرني؟

لم يعد نغوثو يحتمل أكثر فجّن جنونه، صفعها على وجهها ثم رفع يده استعدادًا لصفعة أخرى، استطاع نجوروغي أن ينطق أخيرا، ركض إلى الأمام وهو يبكي باهتياج:

- أرجوك يا أبي.

نظر نغوثو إلى ابنه، جرى نحوه وأمسك بكتفيه، أثارت قبضة والده الخوف في نفسه. دمدم نغوثو بصوت خافت بعض الكلمات ثم حرره من بين يديه. وشاح بوجهه وغادر.

همس نجوروغي لنيوكابي:

- أمي...

- لماذا سحروه؟ لقد تغير رجُلي.

- أرجوك يا أمي.

لكنها استمرت في النشيج.

شعر بالوحدة، شيء ثقيل وبارد لا يحتمله. حتى النجوم التي تلألأت في آخر الليل لم تشعره بالراحة. مشى عبر ساحة الدار غير آبه بالظلام. تمنى لو أن مويهاكي معه حتى يخبرها بما يجول في صدره. من بعيد، تسطع أضواء المدينة التي ولدت منها الدعوة للإضراب تشير له فلم يستجب لها، بل أراد أن يتيه في الظلام، هو غير قادر على أن يكون حكما بين أمه وأبيه.

وحينما أوى إلى فراشه، سجد ودعا: يا ربنا اغفر لي لأنني شرير، ولعلي أنا الذي جلبت النحس إلى بيتنا، اغفر لي خطاياي وأعن أمي وأبي يا رب

إبراهيم واسحق ويعقوب، ساعد عيالك واغفر لنا جميعا. آمين.

- يا رب، هل تعتقد بأن الإضراب سينجح؟

أراد أن يطمئن، وأن يعلم المستقبل قبل حدوثه. في العهد القديم كلم الله عباده، لذا يمكنه أن يفعل ذلك الآن. أخذ نجوروغي ينصت بهدوء وجدية حتى غط في النوم.

7

إنها بداية العام الجديد، كان الفصل مزدحما لأن الطلبة أتوا لمعرفة نتائجهم، هل اجتازوا المرحلة الدراسية السابقة أم لا. جلس نجوروغي في زاوية الفصل صامتا. ومويهاكي حضرت أيضا، لقد صارت فتاة كبيرة، من المؤكد أنها ليست نفس الشخص الذي أصطحب نجوروغي إلى المدرسة قبل خمس سنوات. تشاطرا الآمال والمخاوف ذاتها وشعر بالميل نحوها. وكم تمنى لو كانت أخته. وقف صبي يثرثر ويصيح في الزاوية، لكن صديقه لا يرغب في مشاركته اللعب، جلس الولد، بينما تطلع إليه الاثنان الآخران ببرود، فضحك واحد أو اثنين غيرهما بصوت خافت إلى حد ما. ورغم أنهم جلسوا في مجموعات إلا أن كل واحد بدا منفردا.

جاء المعلم ايسكا وبيده ورقة طويلة، جميع الطلبة هادئون. استَعَد نجوروغي لهذه اللحظة وقال لنفسه عدة مرات أنه لن يتأثر حتى لو رسب، لقد بذل قصارى جهده. ولكن الآن بعدما بدأ المعلم النظر إلى الورقة البيضاء الطويلة، أراد أن يختبئ تحت الطاولة، ثم سمع اسمه، كان على رأس القائمة، ومويهاكي أيضا نجحت. ركضا ناحية المنزل معًا ممسكين بأيدي بعضهما، لم يتحدثا، أراد كل منهما أن يصل إلى المنزل وليخبر والديه بالبشارة. أراد نجوروغي أن تعرف والدته أن ابنها لم يرسب. وإنه سوف ينتقل الآن إلى

المرحلة المتوسطة، اقتربا من منزل مويهاكي وهنا توقفا للحظة ممسكين بأيدي بعضهما ثم سحبا أيديهما وركض كل واحد منهما في طريق مختلف نحو منزله.

وصلت مويهاكي قبله ووجدت والدتها وجميع أطفال العائلة مجتمعين، ولشدة حماسها لم تستغرب هذا الأمر. - أمي... أمي...

- ما الذي حصل؟

صمتت. كان صوت والدتها باردا وحزينا ومشتتا، جوليانا تنظر بلا مبالاة لمويهاكي، ثم بطريقة عدوانية ونفاد صبر صرخت:

- ماذا حدث؟ تحدثي... لماذا عدت إلى المنزل مسرعة؟

قالت مويهاكي بهدوء:

- لا شيء، لقد نجحت.

دون أن يكون في نبرة صوتها اعتزاز بالإنجاز.

- أهذا كل شيء؟ هل أختك لوسيا في المدرسة؟

ثم انفجرت جوليانا باكية تحدث نفسها:

- لقد قلت له أن المُكارِين خطرين، لكن الرجل لا يصغي لكلام المرأة إلا بعد فوات الأوان، قلت له لا تذهب لكنه لم يستمع إليَّ.

سألت مويهاكي بقلق:

- ما الذي حصل يا أمي؟

- حسنا، بما أنك سألتي، لقد قلت دائما أن والدك سوف ينتهي به الأمر مقتولا!

- هل مات؟

انفجرت مويهاكي بالبكاء، ولم يهدّئها أحد.

في ذلك الوقت وصل نجوروغي إلى منزله فرأى مجموعة من النساء

والرجال والأطفال يقفون في الفناء، يلتفت بعضهم ناحية كوخ والده، وبعضهم الآخر ناحية ساحة السوق. لكن أين والدته؟ وجدها في كوخها تجلس على كرسي أرضي وبقربها امرأتين من القرية بقيتا مشدوهتين. وعيونهما تنظران ناحية الفناء.

كان وجه نيوكابي مكفهرا وتشهق باكية وتهتز بين حين وآخر.

تلاشى فرح نجوروغي بنجاحه.

- ماذا يجري يا أمي؟

خشي أن يكون أحدهم قد توفي. رفعت والدته رأسها ناظرة إليه. ارتعد نجوروغي.

المزيد من الرجال والنساء وفدوا إلى فناء المنزل. ويتحدث بعضهم بصوت منخفض.

أجابته المرأتان:

- إنه الإضراب!

بعدها تذكر نجوروغي بالطبع، اليوم هو يوم الإضراب الكبير، الإضراب الذي يهدف إلى شل البلاد بأكملها. لقد حضر الكثير من الناس الاجتماع الذي عُقد في اليوم الأول من الإضراب. توافد الناس إلى ساحة الاجتماع مثل نمل السفاري، يعلم الناس أنه يوم عظيم للسود. نغوثو أيضا ذهب لحضور الاجتماع، فمن يستطيع معرفة الباب الذي سيفتحه الاجتماع أمام أشياء أفضل؟ هل العمل لدى هولاندس سيكون له نتيجة حين تستتب الأمور؟ هكذا كان يهدأ نفسه بينما كلمة نيوكابي عالقة في ذهنه. جاء الحلاق وجلس بجانبه، كان يثرثر باستمرار ويضحك من حوله. كان المتحدثون قادمون من نيروبي ومن بينهم بورو وكياري، لم يجد بورو وظيفة دائمة في نيروبي فانخرط

في النشاط السياسي. شعر نغوثو بالفخر وهو يرى ابنه جالسا مع كبار القوم. إنه سعيد بمجيئه اليوم.

بدأ كياري بالحديث بصوت خفيض وحزين، يسرد أحداثا تاريخية. كانت الأرض كلها ملكا للشعب، الشعب الأسود. وهبهم الله إياها، كل عرق كان لهم بلد، الهند للهنود، أوروبا للأوروبيين وكانت إفريقيا للإفريقيين، أرض السود (تصفيق). من لا يعرف أن كل هذه التربة في هذا الجزء من البلاد قد أعطيت لجيكويو وومومبي وسلالتهما؟ (المزيد من التصفيق) أخبَرَهم كيف سُلبت الأرض بالكتاب المقدس والسيف. «نعم، هكذا سُلبت الأرض، الكتاب المقدس مهَّد الطريق للسيف». لهذا ألقى باللوم على سخاء أجدادهم الذين أشفقوا على الغريب ورحبوا به بأذرع مفتوحة في رحابهم.

- ثم في وقت لاحق أُسر آباؤنا في الحرب العالمية الأولى للمساعدة في حرب لا يعرفون سببها. وعندما عادوا استولى على أراضيهم واستوطنها الجنود البيض. هل كان ذلك عادلا؟ (لا!) ثم أجبر شعبنا على العمل لصالح هؤلاء المستوطنين. كيف كان بوسعهم فعل غير ذلك عندما استولي على أراضيهم وكان يتعين عليهم وعلى زوجاتهم أن يدفعوا ضرائب باهظة لحكومة ليست حكومتهم؟ وحينما وقف الناس للمطالبة بحقوقهم تم إسقاطهم، ولم تكتفِ حكومة الاستعمار والمستوطنين بذلك، فحين قامت الحرب العالمية الثانية أُخِذنا لمحاربة هتلر، هتلر الذي لم يظلمنا، لقد قتلنا وسفكنا الدماء من أجل حماية الإمبراطورية البريطانية من الهزيمة والانهيار.

اِستجاب الرب لنواحهم وشكواهم فأرسل رجلا اسمه جومو، هو موسى الأسود، المخول من قبل الرب ليأمر الفرعون الأبيض: «دع شعبي يتقدم».

- وهذا ما جمعنا اليوم، يجب أن نخبر البريطانيين بصوت واحد، أن

نقاوم ونهتف: «حان الوقت، دع شعبي يتقدم، دع شعبي يتقدم، نريد استعادة ارضنا الآن».

علا تصفيق هستيري، شعر نغوثو باضطراب عميق في معدته. ثبته إلى الأرض حتى أنه لم يستطع التصفيق. أخذ ينظر وهو على الأرض إلى الصيحات والتصفيق، ضباب يغشي كل شيء حوله، يرى الصور بلا وضوح، هل بكى؟ الصور حوله تلونت من الأزرق إلى الرمادي ثم السواد بالكامل، كانت قمصان سوداء، دعك عينيه، القمصان السوداء ما زالت كما هي، إنها تقترب الآن، ثم دقق النظر، لم يكن حلما، حاصرت الشرطة مكان الاجتماع بأكمله. كان كياري يتحدث حينها بصوت عال:

- تذكروا أن هذا الإضراب سلمي... يجب أن نحصل على أجور أعلى، ولأن الحق معنا سوف ننتصر. إذا ضربوكم فلا تردوا عليهم بالمثل.

صعد مفتش شرطة أبيض إلى المنصة ومعه جاكوبو، في البداية لم يدرك نغوثو شيئا مما يحدث. بدا كل شيء غريب، وبدأ يفهم حين تحدث جاكوبو يحث الناس على العودة إلى العمل وعدم الاستماع إلى بعض الأشخاص من نيروبي، الذين لن يخسروا شيئا إذا خسر الناس أعمالهم هنا. لقد أحضروا جاكوبو، أغنى رجل في الأراضي المحيطة، لتهدئة الناس فاستمعوا إليه بصمت. لكن حصل شيء غريب لنغوثو. في لحظة واحدة جسّد جاكوبو نموذج الخائن للشعب خيانة ملموسة. بعد سنوات من الانتظار والمعاناة، كان جاكوبو خائنا. نهض نغوثو وشق طريقه ناحية المنصة بينما الجميع يشاهدونه ويتساءلون عما حدث. إنه الآن بالقرب من جاكوبو، المعركة تدور بينهما الآن، جاكوبو في صف الرجال البيض ونغوثو في صف الشعب الأسود، حدث ذلك بسرعة واستولت الدهشة على الحاضرين. ثم فجأة، وكأنما يقودهم نغوثو،

تزايد الحشد وهرعوا نحو جاكوبو وهنا ألقت الشرطة القنابل المسيلة للدموع وأطلقت الرصاص باتجاه الحشد، سقط رجلان فانتشر الهلع، وخاب إقدام نغوثو وتاه بين الجموع، وركض بغير هدى لا يعرف إلى أين سوى أنه أراد إنقاذ حياته، فضربه شرطي بهراوة على وجهه وسالت دماءه لكنه لم يتوقف، لم يدرك وجود الدم، شعر فقط بشيء دافئ وواصل ركضه فزعا حتى ابتعد ثم تعثر وسقط فاقدا الوعي. هذا الحال الذي وجده عليه أهل قريته، بطل الساعة، وحملوه إلى منزله.

سأل نجوروغي كاماو بعد سماعه القصة:

- هل سيموت نجوروغي؟

- لا، إن حالته ليست خطرة جدا، لكنه نزف الكثير من الدماء.

- لماذا فعل ذلك؟ أعني لماذا هاجم جاكوبو؟

- لا أعرف، لقد رأيناه يصعد إلى المنصة وحينما اقترب من جاكوبو استدار نحونا وصاح: «قوموا»، أعتقد أنه كان في فورة غضبه ولكن بعد ذلك قمنا جميعنا، لم أعرف أن لدى أبي أدنى رأي حول الموضوع.

حل صمت قصير بينهما، وبدا كما لو أن كاماو يحاول تجميع المشهد. بدأ بعض الرجال والنساء في مغادرة الفناء

- لماذا فعل جاكوبو ذلك؟

- إنه عدو للشعب الأسود، لا يريد للآخرين أن يصبحوا أغنياء مثله.

- كيف تم اشراك جاكوبو في الأمر؟

هذا سؤال لا يستطيع أن يجيب عنه إجابةً أكيدة إلا القليل من الناس. قليل من الناس من يعرفون أن الحكومة والمستوطنين يدركون تأثير جاكوبو الكبير على الناس بصفته رجل ثري، ولذلك أثار جاكوبو اعجاب مجتمع

البيض المحلي بما فيهم السيد هولاندس الذي لم يأخذه على محمل الجد حتى احتاج إليه ذات يوم.

جاكوبو كان رجلا مناسبا، وقد استدعته الشرطة لمساعدتها ولم يستطع جاكوبو الرفض. لبعض الوقت ظن أنه ناجح. ثم جاء نغوثو اللعين وأفسد كل شيء. لم يصب جاكوبو بأذى خطير فالشرطة تصرفت في الوقت المناسب وإلا كان قد تمزق إلى أشلاء صغيرة. ولو استمر التدافع لواجه الموت نفسه، تمنى لو أنه سمع كلام زوجته.

في محل الحلاقة احتشد عدد من الناس، والحلاق يجلس بالقرب من نغوثو ويعيد سرد الحادث برمته، كان هذا بعد أيام قليلة من القضية.

- يا له من رجل عجوز شجاع.

- نعم هو شجاع بكل تأكيد.

- هل أصيب بأذى؟

- لا، عدا أنه نزف دم كثيرا.

- لماذا فعل ذلك؟ لقد تسبب بفعلته تلك في قتل رجلين.

- آها، لم يكن باستطاعته فعل أمر آخر، لو كنت مكانه لفعلت ما فعل. سيكون معك كل الحق لو كنت رجلا أبيض في قول ذلك، أما أن تكون رجلا أسود مثلي ومثلك! هذا يظهر أننا نحن السود لن نتحد أبدا. هناك دائما خائن في وسطنا.

علت بعض الأصوات بالموافقة:

- هذا صحيح... هذا صحيح.

قال الشاب الذي أنهى حلاقته:

- هناك بعض الأشخاص الذين لا يرغبون في رؤية أناس أفضل منهم.

وافقه الحلاق:

- نعم، لقد قلت الحقيقة. جاكوبو غني، تعلمون جميعا أنه اول رجل أسود يسمحون له بزراعة بريثريم. هل تعتقدون أنه يود أن يدانيه أحد؟ وكيف وبأي حال تعتقدون أنه سمح له بما حرم على البقية؟

لم يجب أحد. أوقف الحلاق الآلة للحظات، وأوضح بأسلوب متزن:

- لأنه وعدهم أن يبيعنا.

تعالت أصوات موافقة: «نعم... نعم...»

رجل أصلع في منتصف العمر هز رأسه بحزن قائلا:

- ومع ذلك، إنه لأمر مؤسف ما حدث لنغوثو، فقد أُمِر أن يغادر أرض جاكوبو.

- يترك أرض جاكوبو؟!

- نعم.

- لكن جاكوبو يعرف أن نغوثو كان يسكن فيها حين اشترى الأرض من المالك السابق.

- إنها أرضه، ويمكنه أن يفعل ما يحبه.

قال هذا شاب جديد انضم للمجموعة مؤخرا، فتطلع إليه الناس بغضب.

- أليس هذا مخالف للتقاليد؟ علاوة على ذلك أن المالك السابق للأراضي لم يبعها لجاكوبو فعليا.

شُوهد شرطي من بعيد فتفرق الجمع تاركين الحلاق بمفرده. وعندئذ أدركِ كثير من الناس أن الإضراب قد فشل.

منح نجانغا قطعة صغيرة لنغوثو كي يبني عليها مسكنا له، وأدرك نجوروغي أن غلظته وضميره الميت الظاهر للعيان يخفيان قلبا عطوفا.

تلاشت كراهيته القديمة لنجانغا، حتى كماو أصبح يذكره بحب.

لكنها فترة صعبة بالنسبة لنجوروغي، لأن الأكواخ الجديدة تعني صرف المزيد من المال ونغوثو قد خسر وظيفته في المنطقة المستوطنة. وقد ارتفعت رسوم الطلبة المنتقلين للصف الخامس في المدرسة الجديدة. إلى جانب ذلك يتعين دفع رسوم للمبنى أيضا، فقريبا ستبنى المدرسة الجديدة من الحجر، وليس لدى نجوروغي أي أموال، بينما ستذهب مويهاكي للدراسة في مدرسة داخلية للبنات في منطقة بعيدة. وآلمه أنها ستواصل دراستها بينما هو قد ينقطع عن الدراسة. ويوما بعد يوم راح يصلي ويفكر ما الذي عليه أن يفعله كي يحقق حلمه؟ وفي يوم الإثنين من الأسبوع الثالث طُرد من المدرسة، وعاد إلى منزله باكيا.

استجاب الرب لدعائه فرُفع أجر كاماو ثلاثين شلنا، أعطاها لنجوروغي بينما تكفل كوري بدفع الباقي. وغمرت السعادة نجوروغي لاستمراره في الدراسة.

بعد عامين ونصف بالضبط، يقف مسئول حكومي على ذلك التل المطل على نيروبي خائب الأمل. لقد كان وحيدا ينظر إلى البلد الذي سيغادره قريبا.

- لماذا تقف هنا هكذا مندهشًا؟

- لم أكن أعرف أن هذا سيحدث.

- لكنك رأيت علامات تدل على ذلك؟

- لا، لم أرَ.

- لقد رأيت.

- لا، لم أرَ.

- لكن...

- قلت لك لم أرَ شيئا، لقد بذلنا قصارى جهدنا.

ثم مشى بعيدا وضرب بقدميه الأرض غاضبا.

قال:

- أفكر في كل ما فعلناه من أجلهم.

المدينة الكاذبة التي ساعد ومن هم على شاكلته على بناءها، نظرت إليه. لم يكن هناك ارتياح من هذه الناحية التي تعتبر أساس المشكلة.

- هل سمعتني يا أخي؟

- لا، لكنك لم تسألني عما ذكرته؟

- أطفالي يبكون من أجل الطعام.

- ألا تريد أن تسمع ما جرى يا مورينغا؟

- أوه يا مورينغا، مضى زمن طويل.

- قُتل قائد هناك.

- ياه! أهذا كل شيء؟ زوجتي تنتظرني.

- لكن كل شيء مثير للاهتمام.

- سآتي في المساء إذن لسماع القصة.

- حسنا، تعال وسيحضر آخرين أيضا، ولديَّ تلفاز.

- زوجتي تناديني، ابق في سلام.

- رافقتك السلامة.

- لقد كان قائدا كبيرا.

- مثل جاكوبو؟

- لا، أعلى منه. لقد اعتاد على تناول الطعام مع الحاكم.

- وهل فعلا قُتل في وضح النهار؟

- نعم، كانوا الرجال شجعانًا للغاية.

- أعد القصة كاملة إذن.

- يا امرأة، أضيفي المزيد من الحطب على النار، وأشعلي الفانوس، فقد حل الظلام.

كان رجلا متكبرا ويملك الكثير من الأراضي التي منحها الحاكم له، لذلك قد يتخلى عن الرجال السود. كان الرجلين في سيارة والقائد أيضا في سيارة أخرى. تبعه الرجلين طوال طريقه من نيروبي وعندما وصلوا إلى الأرياف تقدم الرجلان إلى الأمام ولوَّحا للقائد بالتوقف، فتوقف. "من القائد؟". "أنا". ثم أطلقوا النار عليهم حتى قتلوهم وفروا بعيدا...

- في وضح النهار؟

- نعم، في وضح النهار، المذيع على التلفاز قال ذلك أيضا.

- يا لهذا الجيل.

- جيل جريء جدا، لقد تعلم الحيلة من الرجال البيض.

- حان وقت الأخبار، دعونا نستمع لما سيقوله المذيع... اصمتوا!

في إحدى الليالي سمع الناس أنه قُبض على جومو وجميع ملاَّك الأراضي وأُعلنت حالة الطوارئ.

قال الحلاق:

- لكنهم لا يستطيعون القبض على جومو.

- لا يستطيعون.

- إنهم يريدون ترك الناس دون قائد.

- نعم، بعد اضطهادهم لنا.

قال الحلاق. يتحدث بنبرة صوت غير معتادة منه.

سأل رجل:

- ما حالة الطوارئ؟

- أوه، لا تسأل سؤالا أحمق... ألم تسمع عن الملايو؟

- ما بها؟

- كانت فيها حالة طوارئ.

كان نجوروغي منزعجا بعض الشيء حين علم عن اعتقال جومو.

لقد كان يقدر فكر ورؤية هذا الرجل الذي أصبح معروفا في أرجاء كينيا. مازال يتذكر الاجتماع الذي نظم في السوق من قِبل الاتحاد الإفريقي الِكيني. لقد كان بعد بضعة أشهر من فشل الإضراب. كان الاتحاد الإفريقي الكيني جمعية للسود الذين يسعون للحرية وعودة الأراضي المسلوبة. كما أرادت الجمعية زيادة الأجور للسود، وإلغاء شريط الألوان. لقد سمع

نجوروغي عن شريط الألوان من أخويه في نيروبي، لم يكن يعرف ما هو حقا. لكنه عرف أن فشل الإضراب مرتبط بشريط الألوان. ليس للسود أي أرض بسبب شريط الألوان ولم يتمكنوا من تناول الطعام في الفنادق بسبب شريط الألوان، شريط الألوان كان في كل مكان، الإفريقيين الأثرياء يمكنهم استخدام شريط الألوان على الإفريقيين الفقراء.

ذهب نجوروغي إلى السوق باكرا ذلك اليوم، لكنه وجد أن الكثير من الناس قد سبقوه فلم يتمكن من رؤية جومو. وكان يأمل أن يراه في المرة القادمة، لكن جومو أعتُقل الآن.

الجزء الثاني

ظلام يهبط

8

لابد أن أحدا سمع قصصا عما حدث في نيري وมورانغا، واللتان كانتا بعيدتين عن منزل نجوروغي. تلك القصص التي سمعها بدت مشوّقة، فبعض الأولاد كانوا حكائين جيدين. استمع نجوروغي لتلك القصص باهتمام وتعجُّب، كيف لصبي مثل كارانيا أن يعرف الكثير من هذه القصص.

- أخبرنا بالمزيد.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- كما ترون، لقد بعث برسالة إلى مركز الشرطة في نيري: "أنا "ديدان كيماثي" قائد الجيش الإفريقي الحر، سوف آتي لزيارتكم يوم الأحد الساعة العاشرة والنصف صباحا». استُدعِي المزيد من رجال الشرطة من نيروبي لتعزيز القوة في نيري، واستمر حظر التجول إلى ساعات النهار كي يمنعوا أي أحد من الخروج من منزله، وتأهب الجنود حتى إذا ما جاء "ديدان" يسهل اعتقاله.

في الساعة العاشرة صباحا من ذلك اليوم - يوم الأحد ذاته - جاء مفتش شرطة على دراجة نارية قديمة، رجل أبيض البشرة طويل القامة، متأنق، ولكن ملامحه عابسة. وقف كل رجال الشرطة بانتباه، تفحص كل واحد منهم وتمنى لهم التوفيق في اعتقال ديدان، وفي النهاية أخبرهم أن دراجته النارية لا تعمل عملًا جيّدًا وطلب منهم أن يعطوه واحدة أخرى لأنه

في عجلة من أمره للوصول إلى نيروبي. فأعطوه واحدة ركبها وانطلق بعيدا. وبقيت الشرطة تنتظر ديدان.

- هل جاء ديدان؟

صاح بعض الأولاد:

- لا تقاطعوه، من فضلك يا كارانجا أكمل.

- حسنا. لم يروا أي شخص يوم الأحد، وانزعجوا جميعا. في اليوم التالي تلقوا رسالة أُسقِطَت عليهم من طائرة.

- ماذا كُتب في تلك الرسالة؟

قال كارانجا وهو ينظر إليهم باستعلاء وجه العارف بما كُتِب في الرسالة، تحدث ببطء:

- إنها من ديدان.

- ها؟

- يشكر فيها الشرطة على انتظارهم له واعطاءه دراجة نارية جيدة.

- هل تقصد أن مفتش الشرطة ذاك هو ديدان بشحمه ولحمه؟

- نعم.

- ولكن ذلك الرجل كان أبيض البشرة!

- هذا هو المغزى، يمكن لديدان أن يتحول إلى أي شيء، رجل أبيض، أو طائر، أو شجرة. يمكنه أيضا أن يحول نفسه إلى طائرة. لقد تعلم كل ذلك في الحرب الكبرى.

غادر نجوروغي المدرسة. لقد بقي في هذه المدرسة الجديدة عامين، على الرغم من الصعوبات التي يواجهها في البيت إلا أنه تمكن من الاستمرار

في التعليم، وإذا ما حالفه الحظ الجيد سوف يبلغ في نهاية المطاف ما كان يتمناه. ذهب إلى البيت وهو يفكر في قصة كارانجا التي يعرف أن فيها مبالغات، ولكنها تحتمل بعض الحقيقة أيضا. قيل إن أشياء غريبة حدثت بالفعل. لقد سمع والده وكاماو يتحدثان عن أن كيماثي يفعل أشياء عجيبة جدا، ومن المؤكد أنه رجل عظيم جدا استطاع تفادي قبضة الرجل الأبيض شديد اليقظة.

وصل إلى البيت ووجد الثلاثة أكواخ التي بُنيت على عجل منتصبة أمامه، هذا هو بيته الجديد بعدما طُلِب منهم مغادرة أرض جاكوبو. لقد كانت سنوات كافح فيها نغوثو دون عمل، وبورو تغير كثيرا وأصبح منعزلا أكثر من السابق. ولولا كوري وكاماو لما عرفوا ما الذي أمكنهم فعله.

لقد أصبح جاكوبو الآن قائدًا، يتحرّك رفقة شرطيّين على جانبيه حاملين مسدسات لحمايته من "أولاد الحرية في الغابة". يتنقل القائد من كوخ إلى آخر للتدقيق والحراسة. وأحيانًا يذهب في جولة مع ضابط المقاطعة، وذلك الضابط الجديد هو السيد هولاندس نفسه.

شجيرة صغيرة تخفي المنظر القريب للفناء. خلف أرض نجانغا، مالك أرضهم الجديد، تنحدر بلطف ملاقية شجر الصمغ الطويل أسفله.

نجوروغي متعب، تبعد مدرسته الجديدة خمسة أميال عن بيته، عليه أن يقطع كل تلك المسافة سيرا على قدميه. وهذا ما يعنيه التعليم للكثير من الأولاد والبنات في هذه البلاد. المدارس قليلة وبعيدة للغاية. المدارس المستقلة ومدارس "كيكوي كارينغا" التي بناها الناس بعد توقف البعثات قد أغلقت من قبل الحكومة. وهذا جعل الأمر يسوء. لم يكن هناك أحد في الفناء. غربت الشمس وغاب ذلك النسيم المعتاد الذي يجيء بين الغروب

وحلول الظلمة. بدت الأرض كلها هادئة هدوءًا مخادعًا. وقف نجوروغي للحظة منزعجا من هذا السكون الذي يسبق الظلام. في البداية لم يسمع أي شيء ثم أنصت وسمع همهمات في كوخ نيري. كان الجو بارد ومظلم. وليس هناك أثر يدل على طهي طعام في أي مكان، فازداد شعوره بالبرودة والجوع. ذهب لكوخ نيري، جميع أفراد الأسرة مجتمعين هناك. رأى نجوروغي وجه أبيه مكفهرا. فمنذ الإضراب لم يختفي عبوس وجهه. خلفه كامو منحنيا يقرأ رسالة بين يديه، بينما الوالدتان مختبئتان تجلسان على السرير في الظل. فتوجه نجوروغي ناحيتهما مباشرة وتلبسته الكآبة التي أحسها تملأ المكان.

أمره نغوثو بهدوء:

- اجلس.

ولم يكن ذلك الأمر مهما بالنسبة لنجوروغي فقد كان يستعد للجلوس فعلا. وبينما كان يجلس أدار عينيه ناحية اليسار حيث ظل ذلك الجدار الصغير الذي يفصل الكوخ إلى قسمين، كان هناك أخوه بورو الذي لم يُر في البيت لعدة أشهر.

- المعذرة، كيف حالك؟

- بخير يا أخي، وكيف المدرسة؟

- لطالما أبدى بورو اهتماما ملحوظا بالتقدم الذي يحرزه نجوروغي في المدرسة.

- كل شيء على ما يرام، كيف نيروبي؟ أتمنى أنك تركت كوري وهو بخير.

- نأمل أن يكون بخير يا ولدي العزيز.

والده هو الذي أجابه هذه المرة، نظر نجوروغي بفزع ناحية بورو، وحلت لحظات صمت، فقالت نيري:

- هل تظن أنه في أمان؟

- لا أعرف، ولكنه ليس لوحده بل معه الكثيرين.

- وأنت لا تعرف أين أخذ الآخرين؟

- نعم، صحيح.

ظل ينظر إلى الأرض، ثم فجأة نهض مضطربا. وبدا مرتبك قليلا، ثم جلس مرة أخرى، وقال بصوت أقرب إلى البكاء:

- إذا فعلوا ذلك... أوه لو...

ظن نجوروغي أن بورو قد جُنّ. ولكن في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل كوري مترنحا يركبه التعب والذعر، منهار تقريبا. سألته الوالدتان:

- ما الأمر؟

همس بأنفاس متهدجة:

- ماء... طعام.

وبعد فترة أخذ يروي حكايته لجمهوره المندهش ضاحكا في أولها.

- الكثيرون... الكثيرون سيؤخذون إلى السجن يا للضياع!

ثم التفت إلى شقيقه بورو:

- إذن أنت واحد من الثلاثة الذين هربوا؟

- كنا خمسة.

- قالوا عنكم أنكم إرهابيون.

- كيف ذلك؟

- بعد أن اخذونا إلى الميدان فقدتك ثم هربتَ، وأصبحت الشرطة متنبهة أكثر بل وضربت الناس. قبل الفجر وضعونا في شاحنات ولم نكن نعرف إلى أين سينقلوننا. كنت أخشى أن يقتلوننا وتنامى هذا الشعور حين

وصلنا الغابة وبدأت الشاحنة تخفف سرعتها. وخطرت لي فكرة القفز وهو ما فعلته. لقد باغتهم وقبل أن يتمكنوا من إطلاق النار كنت قد اختفيت في الغابة، انظروا إلى ركبتي.

أحاطوه جميعهم ما عدا بورو ظل ساهما. كانت ركبته مربوطة بقطعة قماش متسخة وحينما أزالها رأوا إلى أي حد تآكلت.

- ها ها ليس لدي فكرة إن كانوا قد بحثوا عني، لعدة أيام كنت أتنقل مثلك، فقط حصلت على توصيلة من سائق شاحنة.

تساءلت نيري بمرارة:

- لماذا يضطهدون السود؟

كان تشيخ، وأيام الفقر والمشقة التي عاشتها أثقلها هذا الموقف المفزع، ولكن قلبها الآن صار لا يحتمل.

قضوا الليل يتحدثون متهامسين حتى وقت متأخر.

- إنهم يريدون اضطهاد الناس قبل خروج جومو، لأنهم يعرفون أنه سيربح القضية، وهذا ما يبرر خوفهم. كان كوري يشرح ذلك.

- هل سيفرجون عن جميع المحتجزين إذا ربح القضية؟

- نعم، بالتأكيد كلهم، وسوف يأتي وياثي أيضا.

لم ينطق نغوثو بكلمة، جلس منزويا في ركنه الخاص ولم يتمكن نجوروغي من معرفة إن كان يستمع لحديثهم، تغير نغوثو، فبعد الإضراب بفترة وجيزة انتقد بورو والده بشدة، لأنه أفسد كل شيء بفعله المتهور على الرغم من تحذير كياري. اتضح أن بورو ينظر لنغوثو باحتقار، لكنه لم يصرح بذلك بالكلام إلا في هاتين المناسبتين، ومنذ ذلك الحين زاد انتقاده لنغوثو، ونتيجة لذلك شعر نغوثو بتدني مكانته، وغالبا ما كان يحتل مكانا ثانويا

ودفاعيا حين يتحدث مع أبنائه أو أصدقائه، وظل على هذا الحال لعدة أشهر واستسلم لابنه دون تردد. وظن بوور أنه استطاع السيطرة على والده. إلا أن نغوثو قاومه بعزم، وقال إنه لن يؤدي قسم الولاء لماو ماو على يد ابنه أو يتبع تعليماته، وبقيا في خلاف مرير حتى غادر بورو المنزل زمنا طويلا.

9

يعلم الجميع أن جومو قد ينتصر. فالرب لن يترك عباده وحيدين، لا بد لبني إسرائيل أن ينتصروا. الكثير من الناس علقوا آمالهم على النصر في نهاية المطاف. وإذا ما خسر جومو فإن الشعب الأسود الكيني سوف يضيع. لقد حضر لأجله محامين حتى من إنجلترا.

هطل مطر غزير عشية يوم المحاكمة على كابنجا وما حولها. كل الناس في البلاد كانوا سعداء، فالمطر فأل حسن. حضر السود جلسة المحاكمة. وأرواح الشعب الأسود من "ديمي نا مثاثي" حضرت أيضًا الجلسة. هل سينتصر؟ إن التردد في الإجابة جعل الناس يخافون ويؤكدون أن النصر آت لا محالة. وفي المدرسة حدث جدال حاد حول هذا الأمر وبدأه كارانجا، وهو من "نديبيا" بجانب بلدة "الماساي". قال:

- جومو سوف يربح القضية، الأوروبيين يخشونه.

- لا، لن يربح، والدي قال ذلك ليلة البارحة.

رد عليه أحد الصبية:

- والدك يعمل حارسًا.

بدأ الصبيان يتشاجران وتحول الجدال إلى موضوع آخر

- الحرّاس مع أسيادهم البيض، إنهم سيئون مثل الماو ماو.

- لا، ماو ماو أبناء الحرية ليسوا سيئين، فهم يحاربون ضد المستوطنين البيض، هل من المشين أن يقاتل المرء من أجل أرضه؟ أجبني.

- لكنهم قطعوا رقاب رجال سود.

- الذين قُتلوا هم خونة! مستوطنون بيض سود.

سأل نجوروغي:

- من هم الماو ماو؟

لم يكن يعرف أي شيء عنهم، وغلب فضوله خوفه من أن يجهلهم.

قال كارانجا الذي انضم للمجموعة حديثا:

- إنه سر كياما، أن تتشرب الولاء وتصبح عضوا. ولدى الكياما جنودهم الذين يقاتلون من أجل الأرض، وقائدهم هو كيماثي.

سأل صبي صغير ذو عين مريضة:

- أليس جومو؟

- لا أعرف. لكن أبي يقول إن كيماثي هو قائد الجيش الحر وجومو قائد الاتحاد الكيني الإفريقي. أنا معجب بالاتحاد الكيني الإفريقي وأخاف الماو ماو.

- لكنهم جميعا متشابهون، يقاتلون من أجل حرية الشعب الأسود.

قال ذلك صبي طويل وهزيل. وأكمل بذهن شارد:

- أود أن أقاتل في الغابة.

كل العيون التفت ناحيته، لقد بدا أنه قال شيئا عميقا. أو أنه نطق بما يشعر به معظمهم. وبدت الجدية ظاهرة على الجميع، ثم كسر ولد آخر الصمت:

- وأنا أود أن أقاتل، أحب أن أحمل مسدسا مثل الذي حمله والدي حينما

قاتل في الحرب الكبرى مع بريطانيا. والآن سأقاتل من أجل الشعب الأسود.

ثم هتف:

- النصر للشعب الأسود... النصر لجومو...

- أمطرت السماء في الليلة الماضية.

ثم رن الجرس وتفرقت المجموعة وهرعوا لمتابعة دروسهم المسائية.

تلك الليلة عرف نجوروغي أن جومو اختفى. أحس بروحه تهوي ومعدته تضطرب، لم يعرف بماذا يفكر. أوضح كوري:

- إنه أمر مخطط له.

اجتمعوا كلهم في كوخ نيري للراحة.

لن يقول الناس في الصباح وداعا حين يفترقون خوفا من التفكير بما قد يوحي به من وداع أبدي.

عاش نغوثو في خوف على عائلته لأن جاكوبو الذي أصبح القائد الأعلى للحرس لن يسامحه أبدا. كان يعلم أنّه سينتقم منه عاجلا أم آجلا، ولعله ينتظر الوقت المناسب.

ما الذي يعيش لأجله الآن؟ أيامه أضناها التعب، لم يعد الانتظار يجدي، وبدا أن تحقق النبوءة مستحيلا. ربما اقترف خطأ فادحا بقيامه بالإضراب، لأنه فقد الآن كل اتصال بأرض أسلافه. الاتحاد مع الأرواح التي سبقته منحه الهمة، ولكن ماذا كان عليه أن يفعل؟ كان عليه أن يشارك في الإضراب، لا يريد أن يلومه ابن بعد الآن، فحينما يرى المرء اللوم في عيني ابنه الذي شارك في الحرب وشهد قتل أخيه سيشعر بالذنب. لكن نغوثو عامل بورو بلطف، فلابد أنه امتحن بشدة في الحرب. الشيء الذي حثه على مواجهة جاكوبو بالتأكيد ليس له منطق. لكن بورو ما زال مبتعدا. ولكم

تساءل نغوثو مرارا إن كان قد أحسن تربية أولاده. إن كان فشل هو وجيله فهو مستعد للمعاناة من أجل ذلك، ولكن بغض النظر عن قدرة نغوثو على استعادة مكانته في عيون أولاده، إلا أنه لن يقبل أمر ابنه بقسم الولاء، لأنه ملتزم بمبادئه. رغم كل شيء فإن القسم وسيلة طبيعية لإلزام الشخص بوعده في الحياة القبلية. ولكن إن فرضه الابن فهو بهذا يقوِّض مكانة الأب. هذا التوجيه لابد أن يصدر منه فقط، من رب الأسرة وليس من الابن، حتى لو أنه جال العديد من البلدان، أو عرف أمورا أكثر، فذلك لا يمنحه الحق في مخالفة العادات والتقاليد التي نشأ عليها جيله. وشعر بحدة فقد الأرض أكثر من بورو، فهي بالنسبة لنغوثو خسارة روحية. حين ينفصل رجل عن أرض أجداده فأين يقدم قربانا للخالق؟ كيف يتواصل مع مؤسسي القبيلة جوكيو ومومبي؟ ما الذي عرفه بورو عن الولاء والطقوس القديمة وأرواح الأسلاف؟ ما يزال جرح النفي عميقا... عميقا جدا في حياة نغوثو، ويضعفه كل يوم.

بالنسبة له كان جومو أمله، اعتقد نغوثو بأن جومو هو من سيطرد الرجال البيض. وأيضًا جومو هو الممثل للعادات والتقاليد التي هذبها بالتعليم وكثرة الأسفار. لكنه الآن هُزم. من الواضح أن الأمور سارت ضده عندما كبر. جاكوبو قائد الحرس وهولاندس رئيس المقاطعة. كما جفاه ابنه، شحمه ولحمه. هل يستطيع الآن أن يثق بأصغر الأبناء؟ لكن هل فهم نجوروغي ما حدث؟ على أي حال من الذي عرف أي شيء؟

في تلك الليلة تحادثوا بصوت خافت، بورو يجلس في زاويته منعزلا أكثر من أي وقت مضى.

قال كوري:

- ما حدث كان متوقعا.

قالت نيوكابي:

- كنت أعرف أنه سيخسر. كل الرجال البيض متشابهون. لا بد أن محاموه قد رُشُوا.

ردت نيري:

- الأمر أكبر من ذلك، بالرغم من أنني امرأة ولا يمكنني تفسير سببه، إلا أن الأمر واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار. يصدر الرجل الأبيض قانونا أو قرارا، من خلاله - أيا كان اسمه - يقوم بالاستيلاء على أرض، ثم يفرض العديد من القوانين على الناس فيما يتعلق بتلك الأرض، وغيرها أشياء كثيرة. وكل ذلك يحدث دون موافقة من الناس، وليس كما اعتادت القبيلة أن تفعل في سالف الأيام. وحين يعارض ويقاوم رجل ما ذلك القانون الذي أعطاهم الحق في الاستيلاء على الأرض، يؤخذ هذا الرجل من قِبل الرجال أنفسهم الذين وضعوا القوانين التي يحاربها، ويحاكَم بموجب هذه القوانين الغريبة. أخبرني الآن من هو هذا الرجل الذي يمكنه أن ينتصر في ظروف كهذه حتى لو أن محامِيه هم ملائكة الله! أنا أعني...

كانت نيري تلهث، لم يسمعها نجوروغي تتحدث لمدة طويلة هكذا، لكن يبدو هناك شيء فيما قالته والتفتت كل العيون ناحيتها. كانت الدموع تسيل على خديها. بورو بدأ يتحدث وكأنما يقول مرثية:

- البيض مترابطون مع بعضهم البعض، ولكننا نحن السود منقسمون إلى فرق كثيرة، ولأنهم متمسكون بعضهم ببعض سجنوا جومو، أملنا الوحيد، الآن سوف يجعلوننا عبيدا وسيجروننا إلى حروبهم، ويقتلون كل شيء ذا قيمة بالنسبة لنا.

أمسك نجوروغي المقعد بقبضتين متشنجتين وثابتتين، كل الأخطاء التي ارتكبت بحق الناس تكثَّفت في صوت بورو الحاد. شعر نجوروغي أن لديه استعداد لفعل أي شيء ليصحح تلك الأخطاء. لكنه في قرارة نفسه شعر بالخوف. فجأة وقف بورو وهتف:

- أبدا أبدا! يجب على الشعب الأسود أن يثور ويقاتل.

اتسعت عينا نجوروغي، وحبست نيوكابي أنفاسها، بينما أدارت نيري عينيها فزعة باتجاه الباب.

10

كان المكتب عبارة عن مبنى صغير مستطيل الشكل ذي سقف من القرميد الأحمر، يحيط بالمكتب الرئيسي مجموعة من المباني بعضها مشيد من الحجر ومسقوف بالحديد المموج. قرية صغيرة تتألف من أكواخ، أسقفها مصنوعة من الحشائش، وجدرانها من الطين الأبيض قد أكملت مبنى حامية الشرطة، وحول الحامية سياج من الأسلاك الشائكة.

يجلس السيد هولاندس على مكتبه واضعا مرفقه الأيسر على الطاولة وراحة يده على رأسه. وبيده اليمنى ينقر بقلم الرصاص على الطاولة نقرًا متواصلًا بينما يحدق في النافذة الزجاجية الصغيرة المفتوحة بتوتر. من ينظر إليه قد يظن أنه يحدق في الأكواخ المحيطة بمقر الشرطة. لكن ذهنه كان بعيدا غارقا في ذكريات طفولته؛ الحاجز الشجري المستطيل الصغير خارج بيته الذي اعتاد أن يعلب فيه مع الأولاد، حيث الفرح والخوف وآمال الطفولة التي تكبر بداخل كل واحد منهم بطريقته الخاصة. المشاجرات التافهة، الأب الذي يخافه ويحترمه، والأم الرؤوم التي يجد بين ذراعيها عزاءه وراحته. كل تلك الذكريات تداهمه من وقت لآخر، لا سيما في الأوقات العصيبة. ومع ذلك كانت تلك الذكريات من الأشياء التي أراد اقصائها من حياته.

وقف يذرع المكتب جيئة وذهابا مشغول الذهن، إنه يعرف أن لا مفر الآن، أن الحاضر الذي جعله ضابط مقاطعة يعكس الماضي الذي حاول الهرب منه، أن الماضي يتبعه على الرغم من محاولته تجنب السياسة، والحكومة، وأي شيء يمكن أن يذكره بتلك الخيانة. لكن ابنه قد أُخذ... لا إله يمكنه أن يناديه باسم الرب - فبالنسبة له الرب بعيد. وهولاندس لم يؤمن بإله قط، ولم يكن لديه سوى رب واحد هو المزرعة التي أنشأها، الأرض التي ألِفها. من هم الماو ماو الذين يطالبون بتلك الأرض، إلهه؟ ها ها! كان يمكنه أن يضحك على هذه الفكرة السخيفة برمتها، لكن الحقيقة أنهم أجبروه على حياة ثانية حاول تجنبها. وقد دُعي لتولي منصب مؤقت كضابط للمقاطعة فوافق. ولكن هذه الموافقة تعني أمرًا واحدًا فقط هو الدفاع عن إلهه. وإذا ما أخذوا الماو ماو الشيء الوحيد الذي آمن به فالويل لهم، هل أرادوا إعادته إلى إنجلترا، البلد المنسية؟ من هم هؤلاء الرجال السود والماو ماو على أي حال؟ لقد أعاد التساؤل ألف مرة. مجرد همج... "همج" كلمة لطيفة! في السابق لم يكن ينظر لهم كهمج أو أي شيء آخر، لأنه لم يفكر بهم على الإطلاق عدا أنهم جزء من المزرعة، مثل الحمير أو الخيول في مزرعته، إلا أنه يفكر في طعام الحمير والخيول ومكان نومها في المزرعة. أفقده الإضراب نغوثو وحالة الطوارئ أجبرته على التفكير في الخروج من عزلته. لكنهم جميعا سيدفعون ثمن ذلك! نعم، سوف يعذب كل واحد فيهم حتى آخر رمق يحولهم إلى العدم ويظفر هو بإلهه! وكان يرى الماو ماو رمزا لكل ما يحاول أن يتجاهله في حياته. فقهرهم سوف يمنحه الرضا الروحي، مثل إحساس الرضا الذي شعر به عند الظَفر بالأرض. كان مثل الأسد الذي استيقظ فجأة في عرينه.

نظر إلى ساعته التي تبدو صغيرة في معصمه. كان بانتظار القائد، وكم

احتقر هولاندس جاكوبو لأنه يعتبره همجيا، لكنه يود أن يستفيد منه، إن القدرة على جعلهم يقاتلون بعضهم بعضًا بدلا من القتال مع الرجال البيض منحه ارتياحا مسليا. جلس مرة أخرى يفكر في بيته، بيته هو. متسائلا عما سيفعله مع ابنه ستيفن.

لم يكن يود أن يرسله إلى إنجلترا ولكن زوجته كانت تلح عليه أن يسافروا إلى هناك حتى يهدأ الوضع. كان الخضوع لزوجته يعني أن يصغي لصوت إنجلترا، لا... لن يستسلم للماو ماو أو لزوجته، سيجعل كل شيء خاضعا لإرادته، وهكذا هو حال المستوطنين، من الغريب أن يفكر في زوجته وابنه ستيفن فقط. والحقيقة أن ابنته ليست موجودة بالنسبة له، لقد أحبطت إرادته ورغبته وأصبحت مبشِّرة، ما الذي تريد أن تبشر به؟ حتى محاولة تبرير الأمر من جانبه أثار غضبه أكثر. لقد نذرت نفسها بالكامل للرب ولخدمته للأبد.

سمع طرقات على الباب، جاء جاكوبو حاملا سلاحا بيده، دخل، خلع قبعته وطواها باحترام، وعلى وجهه ابتسامة عريضة يكرهها هولاندس. إنهما يعرفان بعضهما لفترة طويلة وكان جاكوبو يطلب المشورة من هولاندس في بعض الأحيان. وكان يجيبه دائما وهو يتحدث عما فعله وما يريد فعله في أرضه التي يحرثها. في الواقع ساعد هولاندس جاكوبو في الحصول على تصريح زراعة أزهار القرحا. وبدوره ساعده جاكوبو في تشغيل العمال وقدم له المشورة بخصوص كدحهم. على أي حال كان ذلك جزء من المزرعة. أما الآن فتجمعهما الخدمة العسكرية معا وعليه أن ينظر لجاكوبو بشكل مختلف.

- اجلس يا جاكوبو.

- شكرا يا سيدي.

- لماذا أردت رؤيتي؟

- حسنا يا سيدي، إنها مسألة طويلة.

- اختصرها.

- نعم يا سيدي، كما أخبرتك ذاك اليوم أنني أراقب جميع أفراد القرية، ذلك الرجل الذي يدعى نغوثو، كما تعلم، إنه رجل سيء، وفظيع جدا، لقد أخذ منهم موثقا.

بدا وكأن هولاندس لا يصغي فسكت جاكوبو لبعض الوقت. ثم ابتسم.

- أنت تعرف أنه هو من قاد الإضراب...

قاطعه هولاندس:

- نعم أعرف، ما الذي فعله؟

- حسنا، كما قلت لك إنها مسألة طويلة، أنت تعرف أن له ولدين عاشا بعيدا عن القرية لفترة طويلة، وأعتقد أنهما يسببان مشاكل في القرية، وأنا مرتاب من الابن الأكبر الذي يُدعى بورو. هذا الرجل يا سيدي كان في الحرب وأظن أن له صلة بالإضراب.

- نعم نعم، ما الذي فعلاه؟

- أنا... حسنا يا سيدي، أرى أن هذين الولدين يعملان في الخفاء ويتعين علينا اخراجهما من القرية وإرسالهما إلى معسكر الاعتقال، لأننا لو تركناهما وشأنهما سوف تموج القرية بأهلها اضطرابا. إن اعتقالهما سيجعل مراقبة نغوثو سهلة لأنه - كما أخبرتك - قد يكون هو القائد الحقيقي للماو ماو.

- حسنا، ابق عينيك مفتوحتين على الولدين واقبض عليهما بأي حجة، حظر تجول أو ضرائب... وأنت تعرف الباقي.

- أمرك يا سيدي.

- هل من أمر آخر؟

- لا شيء يا سيدي.

- حسنا، يمكنك المغادرة.

- شكرا يا سيدي... شكرا لك، أعتقد أن الماو ماو سيُهزمون.

لم يعلق هولاندس

- إلى اللقاء يا سيدي.

- حسنا.

قالها هولاندس بفظاظة وهو يهم بالوقوف كما لو أنه سيرافق القائد إلى الخارج. وما أن خرج جاكوبو حتى صفق هولاندس الباب ووقف عند النافذة الصغيرة. إنه لم ينس نغوثو قط.

جلس نغوثو مع عائلته في كوخ نيوكابي، يفضل الناس الجلوس في أوقات متأخرة مع عائلاتهم فقط هذه الأيام، ينقصهم اثنان، كاماو الذي فضل البقاء في السوق الإفريقية والنوم هناك أيضا، لأنه شعر بالأمان أكثر هناك. وبورو لم يكن موجودا، قد يتأخر أكثر. جلسوا في الظلام فلابد من إطفاء النور في وقت مبكر، وتحدثوا بهمس حديثا مقتضبا. لم يكن لديهم الكثير ليقولوه سوى ملاحظات من هنا ودعابة من هناك لم يضحك عليها أحد.

كانوا يعرفون أن ساعات الليل المظلمة تطول، احتفظ بوري وكوري بأسرّتِهما في كوخ نيري الذي يبعد بضع ياردات عن كوخ نيوكابي. بقي نيري وكوري ينتظران بورو، ولكن حينما لم يعد غادرا إلى كوخ نيري، ربما يأتي بورو في وقت متأخر من الليل أو ينام في أي مكان. فمن يجرُء على العودة إلى بيته في مثل هذه الليلة حيث بدأ حظر التجول منذ الساعة السادسة

مساءً، خرجا وبقي الآخرون في مكانهم. لا يبدو أن الليلة ستمضي على خير. وإذا بصيحة تُسمع فجأة، شطرت السماء المظلمة... قف! ارتعد نجوروغي ولم يقترب ناحية الباب حيث يقفان والده ووالدته ينظران ما الذي يحدث في الخارج. بقي ثابتًا على كرسيه. عاد والده وجلس مثقلا على الكرسي الذي تركه بسرعه عندما سمع أمر التوقف لزوجته نيري وابنه كوري. لحقته نيوكابي وأشعلت الفانوس ناظرة في وجه نغوثو واطفأته. ساد الصمت. "لقد اقتادوهما بعيدا" قالت نيوكابي باكية. شعر نجوروغي بأن في الكوخ أشباح سوداء غير مرئية. أخيرا نطق نغوثو: "نعم" وحشرجة البكاء ترافق صوته المضطرب، ولكن الألم والمهانة الذين أحسهما صعقاه، أهو رجل بعد أن أخذوا زوجته وابنه بسبب خرق حظر التجول دون احتجاج؟ أهذا جبن؟ إنه من أسوأ أنواع الجبن. وهرع نحو الباب مثل المجنون. قد فات الأوان وعاد إلى كرسيه، مهزوما، شاتما لنفسه بعد أن خسر رجولته. وهو مدرك بأن الانتظار في هذا الموقف بحد ذاته جبن أيضا، إنه تهرب من المواجهة. قال بهدوء: "أعرف إن جاكوبو وراء هذا الأمر". بقي نجوروغي متمسكا بالكرسي ليثبّت نفسه. فلأول مرة يُقبض على أحد أفراد أسرته بموجب القوانين الجديدة. على الرغم من أن كوري وبورو وكاماو كانوا ينجون بأعجوبة دائما خلال عمليات الشرطة، ما الذي سيحل بوالده، وما الذي سيحل بنيري وكوري؟

"جاكوبو يريد أن يدمرني، ويريد أن يقضي على هذا البيت، وسوف يفعل ذلك". إنه ألم جامح، أسوأ من نوبة الغضب العنيفة.

في تلك اللحظة دخل بورو وساد الصمت حتى قطعه بورو سائلا عما حدث. فأجابه نغوثو:

- لقد أخذوا أمك وأخيك.

ما يزال مطأطأ الرأس.

- أخذوا.. أمي.. و... أخي...

كررها بورو ببطء.

قالت نيوكابي:

- نعم، هناك حظر تجول.

وهي تنظر نظرة خاطفة إلى بوور، كانت ممتنة أن الكوخ مظلم.

- حظر تجول.. حظر تجول..

ثم وجه حديثه لنغوثو:

- وأنت، ألم تفعل شيئا هذه المرة أيضا؟

شعر نغوثو بأن مسمارا انغرس في صدره، لقد كان مستعدا لقبول كل شيء إلا هذا الأمر. "اسمع يا بني"

لكن بورو خرج ولم يعد لدى نغوثو من يشرح له، ولم يرَ وجه بورو لفترة طويلة. لم يكن خرق حظر التجول جريمة خطرة، هذا يعني مجرد غرامة ثابتة على الجميع صغارا وكبارا على حد سواء. ولكن في هذه الحالة بعد دفع أموال الغرامة سيطلقون سراح نيري فقط أما كوري فسيرسل إلى معسكر الاعتقال دون محاكمة.

نبوءة نغوثو بدأت تتحقق. وفي مكتب حامية الشرطة شعر الرئيس بخيبة أمل لأنه لم يقبض على الشخص الذي يريده. لكنه لم يفقد الأمل.

توجه نجوروغي إلى المدرسة باكرا، يعلم أن شيئا ما حدث لنغوثو، الذي لم يعد ينظر في وجه أحد مباشرة، ولا حتى زوجتيه. وكان نجوروغي متيقنا بأن لو ضرب طفل نغوثو سوف يستسلم له. لم يعد ذلك الرجل الذي حافظ على بيته ذائع الصيت من التلة إلى التلة. لكن نجوروغي ما يزال واثقا به ويشعر

بالأمان بقربه، لم يعد بيت نغوثو الآن البيت الذي تروى فيه القصص وليس المكان الذي يجتمع فيه فتيات وفتيان القرية.

وطيلة تلك المدة ما زال نجوروغي يحتفظ بحبه وإيمانه بالتعليم ودوره الخاص حين يحين الوقت المناسب. وكل الصعوبات التي يواجهها في البيت شحذت همته، التعليم وحده فقط يمكن أن يصنع شيئا ما في هذا الخراب. أصبح ملتزما بدراسته أكثر، في يوم ما سوف يسخر ما تعلمه ي محاربة الرجال البيض، لأنه يود أن يواصل العمل الذي بدأه والده. تسحره مثل هذه اللحظات حينا التي يرى فيها نفسه فعلا المنقذ المحتمل لبلد الرب كله. فليحصل على التعليم، وسوف يأتي ذلك الوقت حينما هو... عندما وصل نجوروغي إلى المدرسة وجد الأولاد الآخرين في حالة اضطراب، تجمع حشد صغير من الأولاد حول سور الكنيسة، كانوا يقرؤون رسالة موجهة إلى مدير المدرسة مثبتة على الجدار. كل صبي يأتي يهرع إلى هناك ثم يصرخ ويخرج من الحشد وتعابير وجهه متغيرة. شق نجوروغي طريقه بين الحشد ليقرأ الرسالة، تلاشت الرؤية أمامه، الخوف الذي حل بالأولاد حوله أصابه أيضا. ساد التوتّر المكانَ قليلا.

قال أحد الأولاد:

- لقد فعلوا الشيء نفسه مع نيري.

- وحصن هول.[7]

- نعم. يجب ألا آتي إلى هذه المدرسة مرة أخرى.

أقبل مدير المدرسة ليرى الرسالة، في البدء ابتسم بلا مبالاة وطمأن

---

7 المركز الإداري لمحافظة مورانجا ويسكنها مجتمع الكيكويو بشكل رئيسي وسميت بحصن هول في فترة الاستعمار. (المترجمة).

الأولاد. وبعد أن قرأ الرسالة تدلت شفتاه، وبحذر شديد أخرج شفرة وأزال الرسالة من الجدار ثم أمسك بها من طرفيها، خانته يداه في حمل الورقة.

- هل لمسها أحد منكم؟

قال الصبي الذي يقف في الأمام:

- لا يا سيدي.

- من وصل باكرا منكم؟

خرج صبي صغير من الحشد:

- أنا يا سيدي.

- هل وجدت الرسالة هنا؟

- لا، لا لم أنظر هنا، لقد رآها كاماو.

- كاماو، هل أتيت بعد نجوجونا؟

- نعم يا سيدي، كما ترى لقد كنت على وشك غرس منجلي في الجدار ثم نظرت إلى أعلى فوجدت الرسالة، لكني في البداية لم أرها.

- حسنا... كاماو... نجوجونا... هل قابلتما أي أحد في طريقكما إلى المدرسة؟

- لا يا سيدي.

السؤال الذي دار في أذهان الأولاد كان: كيف حضر كيماثي إلى مدرستهم؟ لقد كان جو المدرسة غير معتاد في ذلك اليوم. وفي المساء روى نجوروغي الحادثة بأكملها لأمه:

- ...وكتب في الرسالة أنه سيقطع رأس مدير المدرسة وأربعين صبيا إذا لم تغلق المدرسة فورا، ووقّعها باسم كيماثي.

- يا بني لن تذهب إلى المدرسة بعد الآن، التعليم ليس هو الحياة.

شعر نجوروغي بأسى موجع:

- اعتقدت أن ماو ماو تقف بجانب الشعب الأسود.

حذرته نيوكابي:

- اششش... لا تتحدث هكذا في الليل.. الجدران لها آذان.

كان لكاماو رأي مختلف بشأن المدرسة:

- ستكون غبيا لو تركت المدرسة، قد لا تكون الرسالة حقيقية، بالإضافة إلى ذلك هل تعتقد أنك ستكون آمنا في البيت؟ أؤكد لك أن لا مكان آمن، ولا يوجد مأوى في هذه الأرض المسلوبة.

ولم يترك نجوروغي المدرسة.

11

تبدلت الظروف من سيء إلى أسوأ، لا يعرف أحدهم متى يُعتقل لخرق حظر التجول. لا يمكنك حتى التحرك في فناء البيت ليلا. والنيران تُطفئ باكرا كي لا يجتذب الضوء أنظار المتربصين في الخارج. وقِيل إن بعض الجنود الأوروبيين يأخذون الناس ليلا ويقودونهم إلى الغابات ثم يطلقون سراحهم هناك ويطلبون منهم العثور على طريق العودة إلى بيوتهم، ولكن حينما يضلون الطريق ليعودوا إلى مكان الجنود فإنهم يقتلونهم بدم بارد. وفي اليوم التالي يعلنون عن هذا الأمر باعتباره نصرًا على الماو ماو. عاش الصبية في خوف لا يعرفون متى ستُهاجم مدرستهم، لم يستجب معظمهم للتهديد في الرسالة - مثل نجوروغي الذي أصبح ولدا كبيرا، شاب تقريبا - وواصلوا الحضور إلى المدرسة. كل تلك الفوضى المفروضة على كامل البلاد قد بدت جلية في ذهنه. جميع أخوته غادروا المنزل ماعدا كاماو، وما أن حان وقت الختان فهو من تحمل التكلفة، وهو من أبقى المنزل متماسكا، يجلب الطعام والملابس ويدفع أجر دراسة نجوروغي. لكنه لا ينام في المنزل إلا نادرا.

كان لا يزال لدى نجوروغي أب وأخ ووالدتين ولذا ظل يتشبث برؤيته للصِّبَا. وقبل عام واحد من امتحان دخوله إلى المدرسة الثانوية اجتهد في دراسته وانكب على كتبه. لم يلتقِ نجوروغي بمويهاكي منذ التحاقها بالمدرسة

الداخلية للبنات، ولم يحدث هذا الأمر مصادفة، فقد حاول تجنبها حتى قبل إعلان حالة الطوارئ. كيف يمكنه مقابلتها علنا بينما والدها عدو والده في العلن؟ كاد أن يشعر بالألم الذي لابد أنها شعرت به حين سمعت أنهم هجموا على والدها، وبالرغم من أن نجوروغي لا يستطيع إدانة والده إلا أنه شعر بالذنب وتمنى لو أن مويهاكي اخته وليست ابنة جاكوبو. مازالت آخر لحظة سعيدة بينهما عالقة في خلده وتوجعه، حينما وقفا ممسكين بأيدي بعضهما قبل أن يسمعا كل شيء. والحقيقة أن طوال فترة الطوارئ كان والدها هو قائد الحرس، جعله ذلك يشعر بالحاجة للانفصال التام عنها. ومع ذلك فقد تاق إلى رفقتها وليديها البنيتين الرقيقتين وعينيها البريئتين الصافيتين.

في أحد أيام السبت، سلك نجوروغي الطريق الطويل والواسع المؤدي إلى المتاجر الإفريقية حيث يعمل كاماو، كان وحيدا ويبحث عن الرفقة. كان معجبا بعضلات كاماو المفتولة وهو يحمل المنشار أو المطرقة أو فأرة الصقل. لقد بدا واثقا وهو يدق مسمارا هنا ويقطع قطعة خشب هناك. وتساءل نجوروغي في كثير من الأحيان أيمكنه أن يكون هكذا؟ في هذه المرة وجد نجوروغي كاماو لا يعمل. هناك هدوء مقلق يعم المدينة كلها.

- هل أمورك طيبة يا أخي؟

- بخير، كيف تسير الأمور في البيت؟

- كل أمورنا جيدة. لماذا أنتم حزينون جدا؟

نظر كامو إلى نجوروغي:

- ألم تسمع أن الحلاق وستة رجال أخذوا من منازلهم منذ ثلاث ليال، ثم عثَروا عليهم جثثا هامدة في الغابة؟

- ماتوا!

- نعم.

- الحلاق مات، اعتاد أن يقص شعري، يا للأسف... مات؟

- إنه أمر محزن، أنت تعرفهم جميعا، وأحدهم هو نجانغا.

- نجانغا الذي بنينا أرضه؟

- نعم.

تذكر نجوروغي زوجتا نجانغا وهما تنتقلان من حارس إلى آخر تطلبان منه السماح لهما برؤية زوجهما قائلتان إنه استدعاه رجل أبيض من فراشه.

- ومن قتلهم حقا، هل هم الرجال البيض؟

- من يستطيع أن يقول هذه الأيام من قتل من؟!

- هل مات نجانغا حقا؟

- نعم، والحلاق.

إنه لمن السخف التفكير في ألا يرى المرء هؤلاء الرجال الستة مرة أخرى، أربعة منهم كانوا من الأثرياء ولهم دور مؤثر في البلاد كلها. تساءل نجوروغي إذا ما كان وراء هذه الحادثة الماو ماو. هذا ما يفسر ذبح رجال الحكومة لهم بدم بارد. هل سيكون بيته هو التالي؟ قيل إن بورو ذهب إلى الغابة، اقشعر جسد نجوروغي من هذه الفكرة.

بعد يومين كان نجوروغي في طريقه من السوق عائدا إلى المنزل، واختصر الطريق عبر الحقول لأنه لا يريد سلك الطريق المعبّدة. خلّف موت الرجال الستة نوعا من السكون المشحون في القرية. وبالرغم من وجود عمليات ترحيل قسرية وبعض القتلى من القرية، إلا أن تلك كانت أول ضربة كبيرة ومباشرة من الماو ماو أو حكومة الاستعمار للقرية. تذكر نجوروغي بعطف شديد النجار الذي بغضه في طفولته والذي صاحبهم في فترة مشكلتهم

بعاطفة أكثر من وقت حياته.

- نجوروغي.

لم يسمعها وواصل طريقه، إلا أنها اتجهت نحوه. كانت مويهاكي طويلة ونحيله وثدييها صغيرين بارزين، بدت عيناها الناعمتين الداكنتين تتلألأن حيوية. ملامح وجهها الآن تظهر بوضوح فيما شعرها الأسود الداكن اللامع، مشذب بطريقة مميزة غريبة على القرية. وهذا ذكّره على الفور بلوسيا شقيقة مويهاكي التي تزوجت وأنجبت طفلين. كان هو طويل القامة وأشعث إلى حد ما. ملامحه تبدو خشنة وعمره أكبر مما هو عليه. كان لديه دائما تحفظ ودي يجعل منه جذابا وغامضا. في بادئ الأمر هزه شعور البهجة ثم لاحقا شعر بالحرج من وقار وثقة الفتاة. كيف أصبحت هي ابنة جاكوبو؟

- أعتذر، كدت أن أتجاوزك، لقد تغيرتِ كثيرا.

وهذه عادته في الاعتذار بتردد بعد إلقاء التحية المعتادة.

- أنا؟ وأنت أيضا تغيرت كثيرا. (مازال صوتها ناعما) حين مررت بالقرب من بيتك قبل أسبوع لم أرك.

شعر بالارتباك مرة أخرى. على الرغم من انه تعمد لسنوات ألا يلتقي بها إلا أنها أخذت زمام المبادرة للبحث عنه.

- لقد مر وقت طويل منذ لقاءنا آخر مرة.

- نعم، حدثت أشياء كثيرة خلال تلك الفترة أكثر مما حلمنا به.

- حدث الكثير.

ردد كلماتها ثم سألها:

- وكيف هي المدرسة الداخلية؟

- لطيفة، إنها تشبه الدير.

- والبلد؟

- سيء، مثل الوضع هنا.

وفكر في أنه من الأفضل تغيير الموضوع ثم قال وهو متأهب للذهاب:

- آمل أن تستمتعي بعطلتك، يجب أن أذهب الآن كي لا أؤخرك.

لم تجب، فألقى نجوروغي نظرة صوبها.

- أنا وحيدة هنا (نطقت أخيرا بصراحة وصوت طفولي متألم) الجميع يتجنبونني.

دق قلبه كالطبل. ودفعه إحساس الشهامة بداخله ليقول:

- دعينا نلتقي يوم الأحد.

- أين؟

صمت قليلا للتفكير في مكان مناسب.

- في الكنيسة

كان هو المكان الوحيد الذي يذهب إليه الجميع في هذه الأيام المضطربة.

- لا، دعنا نذهب إلى مكاننا ذاك مثلما كنا نفعل فيما مضى.

لم يقاوم اقتراحها.

- حسنا، سوف أنتظرك بالقرب من منزلي وبعدها نذهب معًا. منزلي على الطريق.

- رافقتك السلامة.

- رافقتكِ السلامة.

أحس نجوروغي بشيء من اليقظة تحرك بداخله. وحين عاد إلى البيت وبخ نفسه على قبول الاتفاق. كان على وشك العودة إليها وإلغاء كل شيء.

ارتدى أفضل ما لديه، قميص نايلون رخيص وسروالا قصيرا كاكيا،

وجوارب كاكية وحذاء بنيا منتجا في المصنع القريب من مكان إقامته، بدا مظهره أنيق للغاية. ولكن الآن بعدما تلاشت حماسة لقاء مويهاكي كان خائفا وظل يردد: "أنا أحمق، أنا أحمق". صوتها الناعم والصافي الذي يرن على نحو جذاب وهي تقول: "أنا وحيدة هنا". من كان يظن من مظهرها الخارجي أنها وحيدة ومهمومة؟

استعد باكرا. خرج ليتمشى على مقربة من الطريق المؤدي لمنزلها. أقبلت مويهاكي ترتدي قميصا أبيض مكشوفا من أعلى، وتنورة بنية اللون ذات طيات جعلته يشعر بالخجل من ملابسه. تحركا صامتين، لكن حين تحدثت كان في صوتها اضطراب مكبوت، لقد مر وقت طويل على آخر لقاء لهما نجوروغي. ما تزال ذكرياتها معه في المدرسة غضة. إن مويهاكي لا تنسى أي فضل ولو صغير قُدم لها حتى في طفولتها المبكرة. إن المواساة التافهة التي حاول أن يمنحها إياها هذا الولد في حياتها المبكرة أثرت فيها أثرًا لا يُمحى. وأيضًا نجوروغي، كان ولدا مختلفا عن بقية الأولاد ففُتِنت به، لقد منحها السلام والطمأنينة. حدثت أمور كثيرة بين العائلتين وكانت تعرف على الأقل أن والدها يكره نغوثو. فلم يهمه إخفاء الحقيقة. كانت كراهيته مفضوحة وعلى حد علمها أنها نابعة من إذلال نغوثو العلني له. ولم تتمكن مويهاكي من معرفة الخطأ أو الصواب في القضية. على أي حال عرفت أن والدها يجب أن يكون على حق وأن نغوثو تعامل تعاملًا مُسيئًا مع صاحب الفضل عليه. ولكنها ظنّت أن القضية تتعلق بجاكوبو ونغوثو ولا تأثير لها على علاقتها بنجِوروغي، نجوروغي لديهما عالم يقع خارج التحيزات الحقيرة، والكراهية، والاختلافات الطبقية. لقد اعتقدت أن لدى نجوروغي تصورا مقاربا لتصوراتها حول هذه الأشياء، لكنها لم تدرك أن سنوات افتراقهما العديدة

ليست كلها مصادفة. لم يكن إعلان حالة الطوارئ يعني الكثير بالنسبة لها. لكن بعد مرور السنين سمعت قصصا عن الماو ماو، وكيف أنهم حولوا خصومهم إلى أشلاء بالمنجل فخافت. ولقد سمعت أن بورو شقيق نجوروغي ذهب إلى الغابة ولكنها لم تصدق ذلك تماما. فبالنسبة لها أن الماو ماو لا يمكن أن ينتمون إلى قريتها أو يكونوا ضمن زمرة معارفها. تحدّث المبشّر العجوز على منبر الوعظ عن الكارثة التي حلت بشعب جيكويو، وهي قبيلة سارت في طريق الله، قبيلة اصطفاها الله لنفسه ومنحها أرضا جميلة، ولكن الآن تدفق فيها الدم دون قيود، غطى الأرض بخطيئة دموية متجذرة. تحدث عن الشباب والشابات الذين لا يمكن رؤيتهم بعد الآن. كان وجهه كامدا وهو يتحدث عن الكثيرين الذين يرقدون في معسكرات الاعتقال، لم كل هذا؟ كل ذلك لأن الناس عصوا خالقهم واهب الحياة. رفض بنو إسرائيل أن يصغوا لصوت الرب. سيهلكون في الصحراء التي سيهيمون فيها أربعين عاما.

- يا شعبنا، ما الذي سنفعله للهروب من الطاعون الأكبر القادم؟ يجب أن نلجأ إلى الله، يجب أن نسير على ركبنا حتى نرى الحيوان المعلق على الشجرة هناك، وحينها ستلتئم جراحنا كلها دفعة واحدة. علينا أن نغتسل بدم الخراف. أيها الناس، ما قيل في الكتاب المقدس هذا ما سأتلوه عليكم الآن... دعونا نصلي..

ركعوا جميعا وصلوا من أجل الأرض وبكى البعض. كان البكاء لأجل أولئك الذين لن يروهم. ذهب رجل قصير إلى المنبر. نظر إليه نجوروغي عن كثب. بدا وجهه مألوفا. هم الرجل بالكلام فتذكره نجوروغي، كان هو المعلم المحنك الذي اعتادوا على مناداته يويو، لقد حلق شاربه. كان المعلم إيسكا

انتقل إلى منطقة نيري في العام الذي أنهى فيه نجوروغي المدرسة الأولى. ومنذ ذلك الحين لم يسمع عنه نجوروغي أي شيء. بدا ايسكا الآن مقدسًا بجلاء. كان هذا ما يعنيه أن تكون مبشرا مسيحيا.

- افتحوا انجيل متى، الأصحاح الرابع والعشرين، واقرأوا من السطر الرابع.

ارتفعت خشخشة الورق.

- لنبدأ...

"فأجابهم يسوع: إياكم أن يضلكم أحد!

فسوف يأتي كثير من الناس منتحلين اسمي يقولون: «أنا هو المسيح» ويضلون أناسا كثيرين.

وستسمعون بالحروب وبإشاعات عن الحروب. فإياكم أن تفزعوا، فلا بد من حدوثها، ولكن لا تكون النهاية عندئذ

فستقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة، وتحدث مجاعات وزلازل في أماكن كثيرة.

وهذا كله بدء المخاض.

وستسلمون عندئذ إلى الضيق وتقتلون، ويبغضكم جميع الوثنيين من أجل اسمي.

فيعثر أناس كثيرون. ويسلم بعضهم بعضا ويتباغضون.

ويظهر كثير من الأنبياء الكذابين ويضلون أناسا كثيرين.

ويزداد الإثم، فتفتر المحبة في أكثر الناس

والذي يثبت إلى النهاية فذاك الذي يخلص».

استمر في القراءة حتى وصل إلى المقطع الثالث والثلاثون، ثم توقف

وحدق في وجوه جميع الحاضرين في الكنيسة. ثم أكمل القراءة رافعا صوته:

- "الحق أقول لكم: لن يزول هذا الجيل حتى تحدث هذه الأمور كلها".

كان الوضع كما لو أن الظلام حل على البناية ولم يكن هناك من يضيء الطريق.

في آخر ساعات النهار خرجوا يلفهم الصمت، لقد استغرق القداس بضع ساعات، وسرعان ما همست مويهاكي: - دعنا نذهب متخذين الطريق القديم.

وافقها نجوروغي. كان ذاك الطريق الذي اعتادا أن يسلكاه للعودة من المدرسة.

- هل تعتقد أن ما قاله صحيح؟

- ماذا تقصدين؟ لقد قال أشياء كثيرة.

- هل سيظهر يسوع قريبا؟

جفل نجوروغي، كان يفكر هو أيضا فيما تنبأ به معلمهم عن العالم، لقد تأثر بكلام معلمه لأن كل شيء بدا حقيقيا للغاية؛ الحرب، والأمراض، والأوبئة، وانعدام الأمن، والخيانة، وتفكك الأسرة، لقد شهد نجوروغي كل هذا.

- أوه... نعم.

كان يميل لموافقة معلمه فيما قاله لكن صوت المعلم لم يعجبه وهو يبكي بكاءً هستيريًا: "توبوا إلى الله، فمملكة الرب قريبة".

هل ستخضع البلاد لهذا؟ وهل ستكون عودة المسيح ليرى كل هذا الخراب في العالم؟

قال في النهاية:

- لا أعرف.

- بحق يسوع...

غمغمت في سرها.

وصلا بالقرب من منزلها، قالت له:

- دعنا ندخل.

اعترض نجوروغي، اكفهر وجهها ثم قالت بهدوء وبصوت يكاد يكون غير مسموع:

- أعرف، لأن والدي هو القائد.

- أرجوكِ.

عرف أنه ضُرب، رأت ما في قلبه. دخلا، لم يكن منزل جاكوبو رائعا، لقد تبدل حال البيت. مضى وقت طويل منذ عمل نجوروغي وأطفال التلال على التقاط زهور القرحا، كان يشعر بثقل في معدته كلما اقترب من هذا المنزل. لم يحب إطالة النظر إلى البيت خشية أن يظهر جاكوبو أو جوليانا ويريانه ينظر إلى البيت ذو الطراز الأوروبي. ولكن حتى الآن ظل كل شيء مثير للإعجاب، أمل نجوروغي ألا يكون جاكوبو موجودا، فنادرا ما يُرى القائد، وحينما يراه أحدهم يقترب من منزله هذا يعني أن هناك خطأ ما. اسم القائد أصبح يرعب من في الأرض. لقد تذكر نجوروغي أنه رأى ثلاث نساء مندفعات باتجاه الشجيرات وهن قادمات من السوق. تساءل نجوروغي عن السبب، وحينما نظر إلى الأمام رأى القائد وخاف لكن فات الأوان ليختبئ. وبينما ذهبت مويهاكي إلى المطبخ توقف نجوروغي للنظر إلى الصور المعلقة في جميع أنحاء الغرفة. هناك صورة لوسيا وهي طفلة، وهي معلمة، ثم صورتان من حفل زفافها، وتوجد أيضًا صورة لأخيها جون الذي سافر إلى الخارج. أين

صورة مويهاكي؟ كان يتوق لرؤيتها، كيف تبدو في الصور؟ ثم سمع خطوات أقدام عند الباب فالتفت نجوروغي، كان جاكوبو وزوجته جوليانا وثلاثة من الحراس حاملين بنادقهم يدخلون المنزل. ذهب نجوروغي وهو لا يزال ينظر إليهم وجلس على المقعد تاركا يده اليسرى على حافة المقعد وبيده اليمنى يلعب بزر قميصه. سأله جاكوبو:

- كيف المدرسة؟

وبعدما اتخذ جاكوبو والحراس مقاعدهم توجهت جوليانا إلى المطبخ. بدا جاكوبو متعبا، لم يعد المزارع الفخور القديم.

- كل شيء على ما يرام.

- في أي صف أنت الآن؟

- الصف الثامن وسأؤدي امتحان "كاب"[8] هذا العام.

وحينها ستذهب إلى المدرسة الثانوية؟

نعم، إذا اجتزت الامتحان.

شعر نجوروغي ببعض الشجاعة وجلس باستقامة على مقعده. كان وجه جاكوبو مجعدا بعض الشيء، وعرا صوته بعض التغيير وهو يقول:

- آمل أن تؤديه أداءً جيّدًا، إن أمثالك يجب أن يجدوا في العمل ويعيدون بناء البلاد.

شعر نجوروغي بالحماس، لقد رأى نفسه وهو يعيد بناء البلاد كلها. وفي لحظة بهجته بهذا الاحتمال، استرق النظر إلى الحراس ووجدهم يحدقون فيه. ذكرته قمصانهم الصوفية الحمراء بالحلاق الميت.

ذهبت مويهاكي مع نجوروغي إلى التل بالقرب من منزلها، استلقت على

---

8 KAPE الامتحان الكيني الإفريقي التمهيدي بعد المرحلة المتوسطة للطلبة الإفريقيين. (المترجمة).

جانبها الأيسر على العشب ووجهها قبالة نجوروغي. جلس منتصبا ومحدقا في السهل أسفله، كان السهل مترعًا بالماء خاصة في موسم الأمطار، لكنه جفّ الآن. أخذت مويهاكي تلعب بزر جيبه الخلفي ثم جلست منتصبة ونظرتْ إلى السهل قائلة:

- أنا خائفة.

قال نجوروغي:

- عليكِ ألا تخافي..

- لكنني خفت حين قال المعلم بأن نهاية العالم قد اقتربت.

التفت نجوروغي نحوها ونظر إليها برهة. حاول أن يبتسم بتسامح لكن فشل. بقي وجهه منكمشا بتجاعيد صغيرة كما لو أنه يتذكر شيئا.

- من الصعب تخيل أن كل شيء مدمَّر ومسوًّى بالأرض مثل هذه الأرض الآن، تخيلي دماء وعظام جميع الناس، عظام البيض والسود، عظامنا أنا وأنتِ، جميع...

- توقف أرجوك.

أغمضت عينيها كما لو أنها لا تريد أن ترى مشهد بحيرة الدم وسهل العظام.

- أرى أنك خائفة.

قال نجوروغي وحاول أن يبتسم مرة أخرى بتسامح، لقد شعر بالشجاعة حقا لأنها خائفة ومجرد فتاة.

قالت حينما استجمعت قواها:

- كما ترى، لقد أفزعني اعتقادي بأنني قد أنام ليلة ثم أستيقظ وأرى كل شيء قد انتهى، قد دُمِّر.

- ولكنك حينها ستدمرين أنت أيضا، فلن ترين شيئا.

- لا تسخر مني.

- أنا لا أسخر منكِ.

كان يفكر في قرارة نفسه في إمكانية حدوث ذلك الأمر، ماذا سيفعل لو بقي وحيدا وقد دُمِّر كل شيء حوله؟ ما الذي سيفعله بعلمه الذي يأمل أن ينقذ به بلاده من الخراب؟ ثم فكر ماذا لو دمرت عائلته؟ اقشعر بدنه.

ثم سألها بعجل:

- متى ستعودين؟

- الأسبوع القادم.

- بهذه السرعة؟

لم تسمعه.

- نجوروغي، هل تعتقد بالفعل أن هذا ما تنبأ به أشعيا وبقية الأنبياء؟

- إن ذلك ورد في الكتاب المقدس.

- لأنني أفكر، إن كان يسوع على علم بحدوث هذا في بلدنا فهو قادر على منع حدوثه، ألا تعتقد ذلك؟

يؤمن نجوروغي بعدالة الرب، لذلك يعتقد بأن كل الأمور ستكون بخير في النهاية وأحس بالذهول لتخيله أن الرب ربما اختاره ليكون وسيلة لخدمته الإلهية. ثم قال:

- للرب أقدار خفية.

- أنت تعرف ما الذي يقلقني حقا؟ أبي، لقد اعتاد أن يتعامل بلطف وطيبة خاصة معي. لقد ضايقني بعض المرات ولكن ذلك لا يهم. يقف دائما بجانبي حين توبخني أمي. استمتع برؤية ابتسامته وأتمنى أن أتزوج برجل له

مثل أسنانه.

توقفت هنيهة تتفكر ثم نظرت إلى الأسفل وكأن هنالك أمر يحيرها.

- لكنه كتوم الآن، المسدس ومقبضه الذين يحملهما جعلاه غريبا عني. آآه لو كنت فقط في عمر أكبر وأقوى لأفعل شيئا. ربما لا تصدق ذلك ولكن...

قال عرَضيًّا:

- إنه هكذا في كل مكان.

كل شيء سيتغير، لكن على الناس أن يؤمنوا ويثقوا بالرب.

واصلت حديثها وهي تراه غير منتبهٍ لها فعلا:

- أكره التفكير بأنه قد قَتل بعض الرجال، يستيقظ ليلًا قائلا بأنه سمع بعض الناس يتحدثون عن موته. وأُناس تعرفهم يتجنبونني دائما، حتى الفتيات في مثل سني. إنه... أوه...

انفجرت باكية. صُدم نجوروغي وهو يرى دموع فتاة كبيرة. كل الفتيات هكذا، فكّر بينه وبين نفسه. ومع ذلك لم يصدق أن مويهاكي تبكي. سحب نجوروغي ورقة عشب طويلة يمضغها. بينما أخذت مويهاكي منديلها لتمسح عينيها.

تطلّع نجوروغي بعيدا. كان السهل كبيرا وهادئا، للحظات نسي وجود مويهاكي وغرق في تأملاته عن دوره الحيوي في البلاد. لقد تذكر داوود وهو ينقذ بلدا بأكمله من لعنة جالوت.

- لابد أنك ظننت أنني فتاة ضعيفة، كما تعلم، إنني اعتقد بأن الناس مخطئين.

راوده الشعور ذاته حين تحدث المبشّر العجوز عن الخطيئة. إذا أخطأ

شعب جيكويو فقد يرسله الرب إليهم، لقد تذكر صموئيل وأنبياء آخرين. إلا أنه قال:

- هل من الممكن أن تخطئ أمة بأكملها؟

- يخطئ رجل واحد فيعاقب الرب الجميع.

يظن نجوروغي أنها محقة، لقد فعل الرب هذا كثيرا في بني إسرائيل، لكنه يرسل دائما شخصا لإنقاذهم.

- والخطيئة يمكن أن يرتكبها أي شخص أنتِ... أنا...

لقد راعته هذه التخيلات. طالما شعر بهذا الشعور في بعض الأحيان كما حدث في ذلك اليوم الذي تشاجرت فيه والدته مع والده، لقد أحس بالذنب وكأنه المسئول عما حصل. صد ما كان يفكر فيه ونظر إلى مويهاكي قائلا بحزم:

- لا بد أن يحل السلام على هذه الأرض!

بدأت مهمته المتمثلة في طمأنة الناس.

قالت وهي تدنو منه كما لو أنه طمأن نفسه:

- أوه يا نجوروغي هل تظن ذلك حقا!؟

- نعم فكل ليل مظلم تتبعه شمس مضيئة، نحن ننام واثقين بان الشمس ستشرق في الغد.

لقد أحب هذا الجزء من فكرته، لكنه انزعج إلى حد ما حين قالت ضاحكة:

- غدا.. غدا لن يأتي أبدا، أفضل أن أفكر في اليوم.

اتسعت عيناها كطفل ونظرت إليه مستبشرة. خطرت لها فكرة وأمسكت عنقه بيديها وهزته بحماس.

- ماذا؟

سألها نجوروغي ذاهلا.

- هب أننا ذهبنا أنا وأنت من هنا حتى انقضاء الليل.

- لكن.

- سوف أكون أختا لطيفة، تطهو لك الطعام اللذيذ.

- انتظري قليلا.

- أليست فكرة جيدة؟

كان نجوروغي جادا، إن هذه الخطة دمرت رؤيته، ما الذي سيظنه الرب؟ أنه هجر مهمة كهذه؟

- لا.. لا.. كيف نترك أبوينا وحدهما؟

- يمكننا ذلك.

- أخبريني، إلى أين نذهب، وماذا نأكل؟

شعرت بخيبة أمل لكنها سرعان ما ضحكت قائلة:

- لا تكن جادا، كنت أمزح فقط.

أحس نجوروغي بالحيرة وبشيء من الغضب تجاه الفتاة. لم يستطع فهمها يوما. حاول أن يبتسم قائلا:

- بالطبع أعرف أنك تمزحين.

ظنت أنه منزعج وحاولت أن تخفف عنه:

- لكن يجب أن نظل أصدقاء أن نحافظ على الثقة بيننا.

- نعم، نحن أصدقاء.

- لكنك لم تأتِ لزيارتي أبدا حينما...

أدرك فجأة الفرق بينهما.

- نحن لا نتقابل.

ناشدته:

- لن تتركني وحيدة حين أعود؟

اتسعت عيناها مرة أخرى وهي بالقرب منه، لمست ياقة القميص وفركت حشرة تتمشى على الياقة. نظر إليها بطريقة أُخوية، لقد نسي اختلافاتهما بسرعة، كان من السهل أن تصبح أخته.

قال:

- عندما تعودين سأكون معكِ.

- هل هذا وعد؟

- بكل تأكيد.

مضيا معا. قبل أن يتلقفهما الظلام.

يصيح طائر ويتبعه طائر ثان. وهذان الاثنان، صبي وفتاة، يتقدم أحدهما الآخر، يتوه كل منهما في عالمه، يمضي الوقت وهما غافلان عن الظلام الذي افترش الأرض كلها.

12

شعر السيد هولاندس ببعض الرضا حين بدأت الآلات التي جلبها بالعمل. كان السود يدمرون السود. سيدمرون أنفسهم حتى يفنوا. ما الذي يهمه إن كان الرجال السود في الغابة قد دمروا القرية بأكملها؟ ما الذي يهمه حقيقة غير أن عدد العمال سيتناقص؟ دعهم يدمرون أنفسهم وليحارب بعضهم بعضا. والقليلون الذين سيبقون سيكونون راضين بالحَجْر المفروض عليهم من الرجال البيض. نعم، فالسيد هولاندس جاء كي يستمتع بعمله. غضب في بداية حالة الطوارئ لأنه استدعي للخدمة العسكرية وترك المزرعة؛ هو يتوق لحياة الفلاح، ولكن مع مرور السنين تملكته رغبة قوية لإخضاع السود تحت إمرته، وهو ما مكنه من العمل بإتقان لم يكن ممكنا لكثيرين في مثل عمره. رفع عينه ناحية القائد جاكوبو وابتسامة شريرة تعلو محياه، تلح عليه الرغبة بركل القائد، بينما كان القائد مبتسما!

- هل أنت متأكد أن بوور هو قائد العصابة؟

- حسنا، لا يمكن لأحد أن يكون متأكدا تماما، لكن...

- ماذا؟

- كما تعلم أن هذا الرجل معروف بخطورته، لقد أخبرتك حين تمشينا معا قبل أن يهرب، حسنا، أظن، أو أعني أن هناك شائعات باحتمالية عودته

إلى المنزل، وحتى لو لم يعد المنزل فإن نغوثو يعرف بالتأكيد أين يختبأ ابنه.

- ألم تكلف رجالا بالتجسس على نغوثو والإبلاغ عن تحركاته؟

رأى السيد هولاندس أن فرض سيطرته على نغوثو قد حان، فهو خصمه. بيد أنه لم يستطِع أن يفسر لنفسه تخليه عن خطط لجلب نغوثو خاضعا ذليلا. ولكن هذا ما كان يريده. وسيكون ذلك أسمى تتويج لمسيرته المهنية قبل عودته منتصرا إلى الحياة الزراعية. في الوقت نفسه سوف يقاوم كل تحركات جاكوبو للقبض على نغوثو في الوقت الحالي، لقد قاوم هذا الأمر بقدر مقاومته لرغبة زوجته بإعادتها مع ستيفن إلى إنجلترا. يدرس ستيفن الآن في المدرسة الثانوية للأوروبيين، على بعد أميال قليلة من سيريانا.

أخذ جاكوبو وقتا طويلا قبل أن يجيب:

- لقد فعلت يا سيدي، لكن هناك شيء آخر لم أكن أود قوله، قبل أيام وجدت ملاحظة مكتوبة على مظروف أمام باب بيتي.

بحث جاكويو في الجيوب الداخلية لمعطفه وأخرج ملاحظة مكتوبة بخط اليد وسلمها إلى الفضولي هولاندس: "أوقف أعمالك الاجرامية وإلا سنأتي برأسك... هذا هو التحذير الأخير".

- ماذا؟! هل تلقيت رسائل أخرى؟

- نعم... اثنان... لكن.

قال السيد هولاندس بغضب:

- ما الذي فعلته بهما أيها الأحمق؟

نِهض السيد هولاندس وتراجع جاكوبو بضع خطوات ناحية الباب. لم يستطع هولاندس أن يستوعب مثل هذا الغباء، أن يتلقى رسالتي تهديد ويحتفظ بهدوئه هكذا!

هدأ بعد لحظات وقال:

- حسنا اترك هذه معي، ممن تظنها تأتيك؟

- من نغوثو.

- وكيف عرفت؟

- هل من أحد آخر يمكنه أن يأتي إلى منزلي بسهولة؟ قبل بضعة أشهر كان ابنه الأصغر في منزلي.

- وماذا كان يفعل في منزلك؟

- حسنا، إنه تلميذ وكان لديه... اه... أعني ابنتي.

لم يفهم السيد هولاندس كل هذا، يبدو أن جاكوبو قد جُنَّ.

- حسنا، اترك هذه الرسالة معي ويمكنك طلب المزيد من الحراس لمنزلك إن أردت. عليك ألا تغادر المنزل دون حرس. راقب نغوثو في كل خطوة.

- أمرك يا سيدي.

- وبالمناسبة، حين يُجّهز الموقع العسكري الجديد من الأفضل لك ولعائلتك أن تنتقل هناك.

- أمرك يا سيدي.

كان صباح يناير حار، يسير شابان في طريق ضيق للماشية بلا مبالاة، حاملين كتب الترانيم والكتاب المقدس، ومن خلفهم جماعة من الرجال والنساء يحملون أيضا كتب الترانيم والكتاب المقدس. كان الشابان يناقشان الخلاص المسيحي، بينما النساء اللاتي يرتدين ملابس يوم الأحد الفضيل ما زلن يغنين بفرح:

نثني عليك يا يسوع

يسوع كبش الرب

دمك يطهرني من خطاياي
وأنا أمجدك يا رب.

كانوا جميعهم ذاهبون إلى تجمع مسيحي على بعد أميال من المدنية، سأل نجوروغي شابا اسمه موكاتا:

- هل اقتربنا من المكان؟
- لا، لم نصل بعد إلى الغابة التي أخبرتك عنها.
- إنها بعيدة إذن؟
- ليست بعيدة جدا، لقد ذهبت إلى هناك عدة مرات سيرا على الأقدام.
- هل سيكون هناك أناس كثر؟
- نعم الكثير من النساء.
- لماذا نساء؟
- أين الرجال؟
- لماذا نحن؟
- اثنان فقط.
- هناك آخرون؟
- ربما.

ضحك كلاهما ومضيا بصمت. فكر نجوروغي كم هو رائع لو كانت مويهاكي معهم. لكنها لم تأتي إلى منزلهم في هذه الإجازة بل ذهبت للإقامة مع لوِسيا، وكم يستمتع نجوروغي بقراءة رسائلها، وخلال عطلة الفصل الثاني التقيا عدّة مرّات. إلا أنه لم يكرر زيارة منزلهم، كانا يجدان دائما ما يتحدثان عنه. لا يزال يتذكر كلماتها المشجعة باستمرار حين يمر بصعوبات:

”نجوروغي، أعلم أنك سوف تحقق نتائج جيدة“. ورافقته إلى غرفة الامتحان. وظل ممتنا دائما لوالدته فهي أول من بعثه إلى المدرسة، ثم إلى مويهاكي.

ولكن ماذا لو فشل؟ سيكون ذلك نهاية كل شيء، فما المستقبل دون تعليم؟ ومع ذلك فقد وثق بأن الرب سيتولاه في طريقه هذا.

- هناك، هذه هي الغابة.

- ياه إنها كثيفة، تخيفني.

وقفا على صخرة.

- هل ترى... هناك خلف الغابة المظلمة؟

- نعم، في الخلف إلى يسار التل.

شاهد نجوروغي تلا صغيرا بعيدا.

- نعم رأيته.

- في ذلك المكان سيكون اجتماعنا.

ونزلا إلى الأسفل.

المعلم إيساكا والآخرون اقتربوا أكثر من المكان وهم ما زالوا مستغرقين في الحديث عن الخلاص. اتسع مسار الماشية ولفوا من خلال الغابة الكثيفة. فجأة سمع نجوروغي صوتا: ”توقفا!“

فتوقفا واجتاحهما الخوف حيث وقف أمامهما ضابط عسكري أبيض: ”استسلِما“، رفعا أيديهما وصارت كتب الترانيم والكتاب المقدس في الهواء وكأنهما يعرضان كلمة الرب ليراها الجميع. ”تعالا هنا“ فاقتربا منه أكثر، وجّه مسدسه نحوهما، ثم جاء الرجال الذين يتبعونهما ومروا بنفس الإجراءات واصطفوا خلف نجوروغي وموكاتا. أقبلت النساء ورأين المشهد وتوقف الغناء كما توقفت خطواتهن. استجوب الضابط النساء أولاً ثم سمح لهن

بمواصلة رحلتهن. حين نظر نجوروغي حوله وجد أنه محاط بالجنود الذين كانوا مختبئين في الأدغال حاملين رشاشاتهم ويشيرون مهددين إلى الطريق، تمسك نجوروغي بالكتاب المقدس بحزم. طُلب منهم أن يجلسوا ويبرزوا وثائقهم الرسمية. ولحسن الحظ كان لدى نجوروغي وموكاتا شهادة من مدير المدرسة السابق تثبت أنهما تلميذين في المدرسة. لكن الرجال خلفهم لم يوفقوا، وتعرضوا للضرب حتى أن أحدهم تبول رغمًا عنه إلا أنه لم يتوسل طلبا للرحمة، الكلمة الوحيدة التي ظل يرددها هي "يسوع". جلس إيساكا القرفصاء يتابع المشهد بهدوء، لم تكن لديه أي وثائق. حينما صرخ الجندي: "أين تركت وثائقك؟" أجاب إيساكا بهدوء ولهجة استسلام بأن الشيطان أنساه إياها في المنزل. لكن الجندي كان يعرف أن إيساكا من الماو ماو. أجاب إيساكا مرة أخرى أن يسوع مخلّصه ولا يمكن أن يستبدله بالماو ماو. نظر إليه الضابط بعينين تقدح شررا، ومع ذلك لم يلمسه، تساءل نجوروغي إن كان يخشى إيساكا. إن هدوء المعلم بدا غريبا. وبعدها سمحوا للرجال بالمغادرة عدا إيساكا أجبر على البقاء فلم يحتج. قال له الجندي: "تعال إلى هنا وسنرى ما سيفعله المسيح من أجلك" وقاده إلى الغابة الكثيفة المظلمة، وقبل أن يبتعد الآخرون سمعوا صراخا مروعا مدويا في أرجاء الغابة ولم يتجرؤوا على الاستدارة إلى الخلف. حاول نجوروغي أن يحبس أنفاسه من شدة توتره. مشوا بضع خطوات ثم فجأة سمعوا صرخة أخرى ابتلعها دوي الرشاشات الذي يصم الآذان، ثم حل السكون. بعد مرور بعض الوقت على سماعِ الصوت قال أحد الرجال: "لقد قتلوه". فجأة شعر نجوروغي بالتعب، تعب من كل شيء، إنه أمر لا يصدق بالنسبة له ألا يرى إيساكا المعلم المحنّك الذي اعتادوا أن ينادونه يويو.

- ألا تؤمن بأي شيء؟

- لا ... لا شيء باستثناء الانتقام.

- استعادة الأرض؟

- ربما نستعيد الأرض المسلوبة، لكنني فقدت الكثيرين من أحبابي على هذه الأرض التي يمنحها وجودهم معنى أكثر بالنسبة لي. سيكون انتصارا رخيصا.

كان بورو قادرا عن التعبير عن نفسه قليلا، بينما يجلس مع مساعده يراقبان على بعد بضعة أميال من مخبئهما الجديد، لأن المخبأ القديم كان في الغابة التي أعدم فيها إيساكا دون سابق إنذار ليصبح عدما. كانت دورية الشرطة تبحث عن المجموعة التي يقودها بورر الذي قضى وقتا طويلا في الغابة. إن تصرفاته الشجاعة جعلته قائدا لمقاتلي الحرية لأنه لا يهتم بما يحدث له شخصيا. لقد أمضى عز شبابه في سفك الدماء أثناء الحرب الكبرى. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله بكفاءة. كان بورو يؤكد بنفسه دائما أن السبب الحقيقي لذهابه إلى الغابة هو رغبته في القتال من أجل الحرية. لكن هذا الحماس تلاشى سريعا. وأصبح هدفه الانتقام. فهذا الشيء الوحيد الذي أصبح يثيره ويجعله مقداما. إنْ قتل رجل أبيض واحد فهو يثأر لقتل أخيه.

واصل مساعده:

- والحرية؟

- مجرد وهم، أي حرية لك ولي؟

- لماذا نقاتل إذن؟

- لنَقتُل، مالم تَقْتُل فسوف تُقتَل، لذا استمر في القتل والتدمير فهذا

قانون الطبيعة. الرجل الأبيض يحارب أيضا ويقتل بالغاز والقنابل وكل شيء.

- لكن ألا تعتقد بأنه من الظلم أن نحارب ونقتل دون وجود قضية عظيمة كقضيتنا؟

- وما قضيتنا العظيمة؟

- ماذا؟! إنها الحرية واستعادة إرثنا المفقود.

- ربما هناك شيء من ذلك، أما بالنسبة لي فالحرية لا معنى لها إذا لم تُعِد لي اخي المقتول، ولأن ذلك لا يمكن أن يحصل، فلم يتبق لديَّ سوى القتال. أن أقتل واستمتع بقتل أي شخص يقع في قبضتي. ولكن كفى! القائد جاكوبو يجب أن يُقتل.

- نعم لقد قلت أنت هذا عدة مرات.

كرر بورو العبارة بهدوء:

- قلت ذلك مرات كثيرة...

- لكنك تأخرت.

- أنا أتساءل لماذا تأخرت، تعرف أنك تشعر أحيانا بشيء ما بداخلك، لكنه دون جدوى. لم ينتبه جاكوبو لأي من التحذيرات التي أرسلناها إليه. انظر إلى الطريقة التي تعامل فيها مع النزلاء الذين أُرسِلوا بعيدا عن الوادي المتصدع.

- نعم.

- ومعه هولاندس.

- إنه رجل خطير.

- يجب أن يقتل جاكوبو بمفرده، لا نريد المزيد من الوفيات الآن.

لم يفهم المساعد ما يرمي إليه بورو، تارة يتحدث عن القتل وأن القتل

قانون هذه الأرض وتارة أخرى يتوخى الحذر.

- من سيتولى المهمة؟

- أنا سأتولاها.

- لا... لا يمكننا أن ندعك تذهب. لا يمكننا الاستغناء عنك.

- إذا قبضوا عليّ فستتولى أنت المسئولية من بعدي. لقد بينت لك كل شيء.

- لا... لا أحد منا يمكنه أن يتولى المسئولية.

- هذه قضية شخصية.

- ولكن أظنها ستكلفنا الكثير.

- سوف نرى.

وعادا إلى المخبأ.

13

- نجوروغي سيذهب إلى الثانوية العامة.

- الثانوية العامة!

- نعم لقد اجتاز امتحان "كاب".

أسعد الخبر نغوثو ونيوكابي ونيري وملأهم بالبهجة. لأول مرة بعد سنوات تلألأ وميض في عينيّ نغوثو الذي أصبح يشق عليه المشي منتصبا. وها هو في النهاية، الابن مفخرة العائلة، الابن الذي أصبح نظيرا لجاكوبو وهولاندس وآخرين، يحتقرونه.

كاماو أيضا كان سعيدا ويأمل أن يستمر في مساندة نجوروغي، فقد ينجز نجوروغي شيئا من أجل العائلة. كان نجوروغي سعيد أيضا وأول ما فعله حينما علم أنه اجتاز الامتحان أن ركع للرب يشكره ويحمده على كل ما منحه إياه: "امنحني المزيد والمزيد من العلم، واجعلني وسيلة هداية وسلام".

لم يكن الذهاب إلى المدرسة الثانوية، مدرسة الإرسالية الكبيرة في سيريانا، انجازا بسيطا. علم فيما بعد أنه الصبي الوحيد في تلك المنطقة كلها الذي يذهب إلى المدرسة الثانوية. مويهاكي اجتازت الامتحان أيضا ولكن علاماتها لم تكن مرتفعة فالتحقت بمدرسة تدريب المعلمين، على بعد أميال من مدرستها الداخلية. في البدء شعر نجوروغي بسعادة غامرة لتفوقه

على ابنة جاكوبو، لكنه بعد ذلك أسف لعدم تمكنها من المتابعة. ذاع خبر نجاحه من التل إلى التل. وبالرغم من الوقت العصيب الذي يعيشونه إلا أن الناس مازالوا يحتفظون باهتمام حقيقي بالتعليم. بورو ونغوثو وجاكوبو بينهم اختلافات كثيرة إلا أن الاهتمام بالمعرفة ومطالعة الكتب كانت نقطة التقائهم. بطريقة ما يجد شعب جيكوكو أن تحررهم يتجسد في التعليم. حينما اقترب موعد مغادرة نجوروغي إلى المدرسة ساهم الكثير من الناس بالمال ليتمكن من الذهاب. لم يعد ابن نغوثو بل ابن البلد.

في يوم الأحد الأخير الذي التقى فيه بمويهاكي، ذهبا إلى ذات التل، كان لدى نجوروغي شعور جديد بالفخر والقوة لأن طريقه أخيرا بدا واضحا. الأرض بحاجة إليه وقد منحه الله فرصة حتى يعود ليخلّص أسرته والبلد كله مما هم فيه.

لقد مر عام منذ لقائهما على التل ذاته، لم تتغير مويهاكي كثيرا. لقد أكلت الآن العشب ورقة تلو ورقة، ولم تعد تجلس بالقرب منه كما فعلت في المرة السابقة. لقد تحدثا عن أشياء كثيرة عدا الشيء الوحيد المهم الذي يعتمل في صدريهما.

سألته:

- متى ستذهب؟

- بداية الشهر المقبل.

- مدرسة سيريانا جيدة.

- نعم، صحيح.

- حين يذهب المرء بعيدا ينسى من تركهم وراءه.

- حقًا؟

آذتها كلمته، لكن قالت:

- نعم، ماذا ستفعل بعدما تنهي تعليمك؟ أنا متأكدة من إنك ستصبح رجلا ذا شأن.

- في الواقع لم أخطط بعد، لكن ربما أرغب في مواصلة دراستي في ماكيري أو بريطانيا مثل أخيك.

- أخي ذهب إلى أمريكا وليس بريطانيا.

- حسنا، لا يهم...

ثم اقترب منها كأنه للتو علم بوجودها وهي مطرقة إلى الأرض تحاول رسم شيء على التراب. تساءل لماذا لا تنظر إليه، أتشعر بالغيرة؟

- وبعد ذلك؟

قالها بجدية وتنحى بعيدا عنها قليلا. وتراءى له حلمه.

- بلدنا بحاجة ماسة لنا.

- هل تعتقد حقا أن البلد بحاجة إليك؟

- نعم.

قالها منفعلا، أتشك في ذلك؟

- البلد بحاجة إليَّ، وإليك، وإلى الجميع. يجب أن نتحد ونعيد بناءها. هذا ما قاله لي والدك حين كنت في منزلكم.

يخيم الظلام على البلاد الآن.

أسرّت لنفسها.

- ستشرق الشمس غدا.

قالها منتشيا. نظر إليها كما لو يود أن يخبرها أنه لن يفقد إيمانه أبدا لأنه يعلم أن الرب لديه خطة خفية.

- إنك تتحدث دائما عن الغد، وعن البلد، والشعب، ما الغد؟ وماذا يعني لك البلد والشعب؟

لقد توقفت عما كانت تفعله ونظرت إليه بعينين ثائرتين.

أحس نجوروغي بالخوف حين رآها هكذا فلم يشأ أن يغضبها وتألم لأجلها، نظر إليها ثم إلى السهل الممتد إلى التلال البعيدة التي يكتنفها الضباب.

- مويهاكي، لا تغضبي، ماذا يمكنني قوله الآن؟ أنا وأنت علينا أن نعلق إيماننا بالأمل، توقفي للحظة يا مويهاكي وتخيلي أن كل أيامك ستكون دائما بين الدم المهدور لرجال يموتون في الغابة، وبين آخرين ينوحون طالبين الرحمة. إذا كنت تعرفين أن هذا مستمر إلى الأبد فالحياة ستكون بلا قيمة؛ إلا أذا كانت إراقة الدماء والموت هي القيمة. وبالتأكيد هذا الظلام والإرهاب لن يستمر إلى الأبد. بالطبع سيكون هناك يوم مشمس، يوم حلو ودافئ بعد كل هذه المحن. عندها نتمكن من أن نحيا في طهر وحب الرب.

كانت مستلقية بهدوء ورأسها قريب منه، اتسعت عيناها بسرور، فقد أبهجها حديثه. وأرادت أن يواصل الفتى حديثه المبشر بالأمل. يمكنها أن تثق به الآن كانت تستطيع رؤية الغد المشمس اليوم وتنسى المشاكل الحالية. إذا تشبَّع كل امرئ بصفاء ولطف الرب، حينها ستزول الكراهية و...

- هل نمتِ؟

قالت بعجل:

- لا.. لا.

- الشمس تغرب، يجب أن نعود للمنزل.

وقفا وحين ابتعدا عن بعضهما قالت له بحزم:

- سوف تنجح.

شعر نجوروغي بثقل في قلبه وخجل من الوقت الذي فكر فيه أن موبهاكي تغار منه.

- شكرا يا موبهاكي، لقد كنت أختا حقيقية لي.

همست:

- شكرا لك.

راقبته وهو يغادر، ثم أدارت رأسها وتناولت منديلها لتمسح الدموع عن خديها وهي تتجه ناحية منزلها أسرع فأسرع.

14

كانت مدرسة سيريانا الثانوية مركزا معروفا للتعليم، نظرا لكونها من أوائل المدارس التي افتتحت في زمن الاستعمار، وتوسّعت توسُّعًا كبيرًا بسبب جهود مؤسسيها التبشيريين. بالنسبة لنجوروغي فإن مجيئه هنا يعني الاقتراب من تحقيق أحلامه. ولأول مرة سيقوم بتدريسه رجال بيض، وهذا أمر أربكه. بالرغم من أنه ليس لديه تواصل فعلي مع الرجال البيض، إلا أن لو أحدهم قابله وأساء معاملته أو حاول توبيخه والحط منه، فسوف يفهمه نجوروغي ويعرف كيف يتصرف معه. لكن ليس عندما قابل من يبتسم ويضحك له، وليس عندما وجد من يسعى لعقد صداقة معه وإعانته على تقدمه المسيحي، ومرة أخرى التقى بأولاد من قبائل متعددة، وكذلك حين يحاول الأولاد ممارسة السحر الخطير عليه كان يفهم ذلك. وعوضا عن ذلك، التقى بصبيّين أسودَين من مناطق أخرى يشبهانه في كل شيء. لقد عقد صداقات وعمل مع نانديي، لوه، واكامبا، وجرياما، كانوا أولادا لديهم آمالهم ومخاوفهم، ما يحبونه وما يكرهونه، إذا تشاجر مع أحدهم أو بغضه، فهو يتعامل كما يتعامل مع أي صبي في قريته، لقد كانت المدرسة مقرا للسلام في بلد مضطرب. في هذه المدرسة من الممكن أن يلتقي مع الرب ليس في الكنيسة الصغيرة حيث يقضي بضع ساعات وحسب بل في هدوء المكتبة،

وللمرة الأولى شعر أنه يهرب من العيون الساهرة من المعاناة والمشقة التي تحدق إليه لفترة طويلة في منزله. هنا يمكنه أن ينظم أفكاره ويضع خطة واضحة لمستقبله. كان متيقنا أنه بالصبر والعمل الجاد سوف يستوفي رغبته في التعلم، فقد تشرق الشمس قريبا معلنة عن يوم جديد.

تشارك مدرسة سيريانا الثانوية في مباريات رياضية بين المدارس بمشاركة بعض المدارس الآسيوية والأوروبية، كانت مدرسة هيل من المدارس الأوروبية الشهيرة التي أرسلت فريقا من الأولاد إلى مدرسة سيريانا للمشاركة في مباراة كرة القدم. كانت الساعة الرابعة، يصطف أحد عشر لاعبا جنبا إلى جنب ومعهم بعض المتفرجين. لم يلعب نجوروغي كرة القدم، وصادف أن تحدث نجوروغي مع أحد الزوار الذي لم يشارك بنشاط في الملعب، وبمجرد أن تحدث نجوروغي مع الصبي شعر أنه لابد أن رآه في مكان آخر. صبي طويل القامة، لديه شعر بني طويل ينفح وجهه كلما مرت ريح، كان عليه أن يستمر في أرجحة رأسه كي يعيد خصلات شعره إلى مكانها اللائق. قال له نجوروغي أخيرا وهو يصحبه في جولة:

- أعتقد أنني رأيتك من قبل.

- حقا؟

نظر الصبي إلى نجوروغي بكلتا عينيه. احتار في البداية لكن ظهرت البهجة على وجهه وهو يقول:

- أوه، هل أتيت من كيبانغا؟

- نعم، هذا المكان الذي رأيتك فيه من قبل.

- نعم، أتذكرك، أنت ابن نغوثو الذي...

توقف فجأة ثم أكمل:

- أنا ستيفن... ستيفن هولاندس.

- أنا نجوروغي.

مشيا معًا بصمت. لم يخف نجوروغي من ستيفن، فهنا في المدرسة هو مجرد صبي ونجوروغي لا يخاف من صبي.

- متى جئت إلى هنا؟

- منذ بداية العام وأنت؟

- أنا منذ عامين في مدرسة هيل.

- وأي مدرسة التحقت بها قبل هيل؟

- نيروبي، وأنت؟

- مدرسة كاماهو المتوسطة.

- هل هذه المدرسة التي كنت فيها حين مررت بالقرب من منزلنا؟

- لا، كانت تلك مدرسة كاماي الابتدائية وانتقلت فيها للصف الرابع، هل رأيتني؟

- نعم.

كان ستيفن يتذكر الكثير من المرات التي يختبئ فيها عند السياج بالقرب من منزلهم بهدف التحدث إلى نجوروغي أو أي طفل آخر، ولكن كلما اقتربوا خاف.

- نحن لم نرك!

- اعتدت الاختباء على مقربة من الطريق للتحدث مع بعضكم.

هنا بدأ ستيفن ينسى خجله.

- لماذا لم تفعل؟ هل كنت خائفا؟

- خائف؟ نعم كنت خائفا لأنك قد لا ترغب في التحدث معي، أو

لأنك لست بحاجة إلى رفقتي.

- أكان الأمر سيئا لهذا الحد؟

- ليس كثيرا.

إنه لا يريده أن يتعاطف معه.

- أنا آسف لأنني هربت منك، أنا كنت خائف أيضا.

- خائف؟

هنا تعجب ستيفن!

- نعم كنت خائفا منك.

- لكنني لا أنوي إيذاءك!

- هذا صحيح أيضًا بالنسبة لي، لم أكن أنوي الايذاء، كيف يمكنني أن أعرف ما تنوي فعله؟

- غريب.

- نعم هذا غريب، غريب كيف تخاف من شيء لأن قلبك مهيأ للخوف، ربما لأنك ترعرعت على الخوف من هذا الشيء، أو ببساطة لأنك وجدت الآخرين يخافونه، وهذا ما حصل معي، حينما ذهب أخوي إلى نيروبي وسارا في الشوارع قالا إنهما لا يحبان الطريقة التي ينظر إليهما الأوروبيون بها.

- أعتقد أن الأمر هو نفسه في كل مكان، سمعت الكثير من الأوروبيين أيضا يقولون إنهم لا يحبون الطريقة التي ينظر إليهم الأفارقة بها، وحينما تتمشِى في نيروبي أو في البلاد، وبالرغم من صفاء السماء وإشراقة الشمس، إلا أنك لا تشعر بالحرية في الاستمتاع بجمال السماء، لوعيك بوجود شحنات توتر في الجو. ما لا يمكن لمسه لا تمكن رؤيته، لكنك تدرك وجوده طوال الوقت.

- يصبح الأمر مثيرًا للجنون، بعض الأحيان تخاف من شيء وحين تحاول الفرار منه تعرف أن الأمر لا يجدي نفعا، لأنك أينما ذهبت ستجد ذلك الشيء أمامك.

- أمر مريع.

أيده نجوروغي:

- أمر مريع. نجوروغي

أحس كلاهما أنهما قريبين من بعضهما تجمعهما تجربة مشتركة من الخوف وانعدام الأمان لا يمكن أن تغيب عن الذاكرة.

- نعم، البلاد رائعة وجاذبة.

- إنها أرض الشمس الساطعة والمطر والرياح والجبال والوديان والسهول. ولكن، أوه ضوء الشمس...

- إنها معتمة الآن.

- نعم، شديدة العتمة ولكن الأمور ستكون على ما يرام.

مازال نجوروغي متفائل بالمستقبل. يأمل في يوم أفضل يمكنه أن يبعث الراحة لطفل ينتحب. ولا يعرف إن كان إيمانه بالمستقبل شكلا من أشكال الهروب من واقعه الحالي. ابتعد الاثنان عن الزحام ووقفا معا تحت شجرة أكاسيا.

- سأغادر منزلنا قريبا.

- إلى أين ستذهب؟

- إنجلترا.

- أليست إنجلترا بلدك؟

- لا ليست بلدي. إنني ولدت هنا ولم أسافر لإنجلترا قط، ولا أريد

الذهاب إلى هناك.

- هل يتوجب عليك الذهاب إلى هناك؟

- نعم، والدي لا يريدنا أن نذهب لكن والدتي مصرة على ذلك.

- ومتى ستذهب؟

- الشهر المقبل.

- آمل أن تعود.

موجة شفقة ملأت نجوروغي على هذا الشاب الذي يضطر للقيام بشيء لا يرغب في فعله. على الأقل، نجوروغي سينهض ويسقط مع نهضة أو سقوط بلده، ليس لديه مكان آخر يذهب إليه.

- أريد أن أعود.

- هل سيذهب والدك معكما؟

- لا سوف يبقى هنا، لكن... لكنك تشعر أحيانا بأنك تبتعد عن شخص ما إلى الأبد. هذا ما أشعر به وهذا ما يجعل الأمر بالنسبة لي سيئا للغاية.

حل الصمت بينهما، أراد نجوروغي أن يغير الموضوع.

- لقد استبدل الفريقان المرميين.

دعنا نذهب ونهتف.

عاد الاثنان إلى الملعب مبتعدين عن بعضهما، سارا في اتجاهين مختلفين وكأنما خائفين من التواصل مرة أخرى.

كتبت مويهاكي رسائل لغورغي مرارا. يتذكر نجوروغي أول رسالة لها قبلِ ذهابها إلى معهد تدريب المعلمين..

"عزيزي نجوروغي،

أنت لا تعرف مقدار شوقي إليك، في الأيام القليلة الماضية لم أفكر في بشيء سواك. تؤلمني كثيرا فكرة أن تكون بعيدا عني، لكنك تعرف ما الذي ستفعله هناك وأنا أعرف أنك ستدرس بشكل جيد لأنك ذو همة. كلي ثقة بك. أنا سأذهب إلى معهد التدريب الأسبوع المقبل، الحياة هنا أصبحت جحيما بالنسبة لي. لقد تغير أبي كثيرا ويبدو أنه خائف من أمر ما. كل يوم تحدث اعتقالات جديدة وحرق للمنازل من قبل الماو ماو، وبالأمس رأيت أناس يتعرضون للضرب ويبكون ويستجدون طلبا للرحمة، يا للفظاعة. لا أعرف ما الذي يحدث، الخوف منتشر في كل مكان، ليس خوفا من الموت بل خوفا من العيش! لقد تملكني الخوف أيضا وإذا استمر الوضع على هذا النحو فقد أجن. أخبرك بكل هذا لأريك مدى سعادتي بإمكانية الفرار من كل هذا".

تساءل نجوروغي عن التغييرات التي سيجدها في منزله نهاية العام، أحقا يريد العودة إلى المنزل؟ إذا ذهب سيشوش البؤس صفو ذهنه. لم يكن يريد العودة، لقد اعتقد أن عودته ستكون جديرة بالاهتمام إن بقي هنا فترة كافية كي يتسلح بالتعليم.

15

إنه صباح الاثنين والجو بارد، أنهى نجوروغي فصليين دراسين وعلى وشك الانتهاء من الفصل الثالث الآن. استيقظ كالمعتاد، تلا صلواته واستعد لطابور الصباح، كان صباحا جميلا رغم برودة الجو. بعد الانتهاء من مناداة الأسماء توجه إلى الكنيسة من أجل القداس ثم ذهب إلى قاعة الطعام لتناول الإفطار وهذا هو روتينه اليومي على الدوام. تناول إفطاره بسرعه لأنه لم ينتهي من تحضيرات الليلة السابقة.

كانت الحصة الأولى لغة انجليزية، ونجوروغي يحب الأدب الإنجليزي.

مازحه أحد الصبية:

- تبدو سعيدا اليوم.

- أنا سعيد دائما.

علق صبي آخر:

- إلا حينما نحل مسائل الرياضيات.

ضحكوا جميعا، وجلجلت ضحكة نجوروغي في الصف.

قال الصبي الأول:

- انظروا... انظروا كيف يضحك، إنه سعيد لأنها حصة اللغة الإنجليزية.

سأله نجوروغي بمرح:

- هل تريدني أن أبكي؟.

- لا، إن أمي أخبرتني أن الرجل يجب ألا يكون سعيد جدا في الصباح لأن ذلك نذير شؤم.

- لا تصدق الخرافات.

لم يعجب نجوروغي التعليق الأخير.

طوال الأسبوع الذي مر انقضت عليه الكوابيس كل ليلة وأثرت عليه حتى أنه لم يتمكن من كتابة رسالة إلى مويهاكي. ومع ذلك حاول أن يكتب لها الليلة. أراد أن يخبرها أن ستيفن غادر إلى إنجلترا برفقة أخته والتي تنوي العودة من اجل مواصلة عملها التبشيري. لقد كتب لها رسالة حين التقى بستيفن لأول مرة وأخبرها عن انطباعه عنه: "بدا وحيدا وحزينا" ختم رسالته بهذه العبارة.

كان الفصل يضج بالصراخ ثم همس صبي: "صهه... المعلم وصل" فساد الصمت في الفصل. دخل المعلم، إنه ملتزم بدقة موعده دائما، فوجئ نجوروغي بتفاني المبشرين الواضح في أداء عملهم. قد يعتقد المرء أن التعليم بالنسبة لهم حياة أو موت. ومع أنهم رجال بيض إلا أنهم لا يتحدثون عن اللون أبدا ولا يتحدثون بتعالي مع الأفارقة. ويجيدون العمل ضمن فريق، يضحكون ويتبادلون النكات مع زملائهم السود القادمين من قبائل مختلفة. تمنى نجوروغي لو أن البلد كله هكذا. بدا المكان كأنه جنة، جنة يمكن للأطفال من جميع النواحي في الحياة ومن مختلف المعتقدات الدينية أن يعملوا معًا بلا إدراك لتلك الاختلافات. يعتقد الكثير من الناس أن ذلك الانسجام في المدرسة موجود بسبب مدير المدرسة، ذلك الرجل الغريب كان حازما مع الجميع من البيض والسود على حد سواء. سريع التفاعل في امتداح كل

عمل جيد، وبالمقابل يخمد كل عمل سيء. يحاول أن يبرز الصفات الحسنة في الجميع، وجعلهم يعملون من أجل تحسين صورة واسم المدرسة. لكنه اعتقد أن الأفضل والمبهر حقا لا يأتي إلا من الرجل الأبيض. لقد أنشأ أولاده على تقليد حضارة الرجل الأبيض والاعتزاز بها باعتبارها الأمل الوحيد للبشرية، وخاصة للأعراق السوداء. لقد كان موقفه تلقائيًّا ضد كل سياسي أسود يجعل الناس يشعرون بعدم الرضا عن حكم الرجل الأبيض ومهمته الحضارية.

كان نجوروغي في منتصف اجابته على سؤال المعلم حين جاء المدير عند باب الفصل. خرج المعلم ليعرف ما يريده المدير، ثم عاد موجها نظره ناحية نجوروغي وأخبره أنه مطلوب في الخارج. بدأ قلبه يخفق بقوة، لا يعرف ما الذي يمكن أن يقول له مدير المدرسة. وقفت سيارة سوداء خارج المكتب، عندما دخل نجوروغي المكتب ووجد ضابطي شرطة عرف أن السيارة الواقفة خارجا لها علاقة به فخفق قلبه خوفا. قال المدير شيئا ما للضابطين وانسحبا على الفور. ثم قال:

- اجلس يا ولدي.

لم تحمله ركبتاه فانهار على الكرسي شاعرا بالراحة. نظر إليه المدير بعينين متعاطفتين وتابع:

- أنا آسف لسماع تلك الأخبار عن عائلتك.

شاهد نجوروغي وجه وشفتي المدير، تتغير ملامحه. استمع باهتمام وكزَّ على اسنانه:

- أنت مطلوب للعودة إلى المنزل. إنه أمر محزن، ولكن مهما فعلت عائلتك ومهما جعلتك تتعهد به في الماضي، تذكر أن المسيح عند الباب، يطرق منتظرا أن يُسمح له بالدخول. هذا هو النهج الذي حاولنا أن نجعلك

تتبعه، ونتمنى ألا تخيب آمالنا.

بدا صوت المدير كما لو أنه على وشك البكاء. إلا أنه حين توجه إلى السيارة أدرك أن المدير لم يخبره عما فعلته عائلته. كلمات المدير المريحة لو تزد نجوروغي إلا عذابا.

إنه لن ينسى تجربته في هذا المعسكر، وعرف موقع المعسكر باسم بيت الألم. في اليوم التالي لوصوله إلى المعسكر استدعي إلى غرفة صغيرة فيها ضابطان أوروبيان لأحدهما لحية حمراء والذي سأله:

- ما اسمك؟

بينما كان صاحب العيون الرمادية ينظر له بوحشية.

- ن ج و ر و غ ي

- كم عمرك؟

- تسعة عشر عاما تقريبا.

صاح أحد الحراس خارج الغرفة:

- سيما أفندي.

- أفندي

- هل حلف اليمين؟

صاح نفس الحارس مرة أخرى:

- سيما أفندي..

- لا أفندي.

- كم مرة حلفت اليمين؟

- ولا مرة أفندي.

كانت الضربة سريعة، أعمته ولم ير غير الظلمة، لم ير العينان

الرماديتان ترتفعان.

- هل حلفت اليمين؟

- أنا تلميذ مدرسة أفندي.

ورفع يديه تلقائيا وضعهما على وجهه.

- كم يمينا حلفت؟

- ولا واحد.

تلقى ضربة أخرى ودمعت عيناه رغما عنه حين تذكر هدوء مدرسته. إنها فردوس مفقود.

- هل تعرف بورو؟

- إنه أخي.

- أين هو؟

- لا أعلم.

وضع نجوروغي على الأرض المتربة وصار وجه صاحب العيون الرمادية أحمر. لم يتحدث قط، إلا كي يصفه بـ"ماو ماو لعين". بعد لحظات قليلة أخذ اثنين من الحراس نجوروغي إلى الخارج. كان فاقدا الوعي ومغطى بالدماء. فقد فعل الحذاء ذو المسامير لصاحب العيون الرمادية اللازم. استيقظ من غيبوبته في آخر الليل. سمع صوت امرأة تصرخ في كوخ ليس بعيد عن الكوخ الذي يرقد فيه. أهي نيري؟! أهي نيوكابي؟! ارتجف للتفكير في الأمر، لقد اشتاق إليهم ويود رؤيتهم جميعا قبل وفاته لأنه كان يعتقد أن هذه نهايته. فالموت ليس سيئا إلى هذا الحد على الإطلاق، إنه يرسلك عبر نوم طويل لا تستيقظ منه أبدا لتواجه مخاوفك في الحياة، وآمالك الميتة، ورؤاك المفقودة.

لم ينتهوا منه، عاد إلى تلك الغرفة في اليوم التالي، ماذا سيفعل اليوم إذا

ما سألوه نفس الأسئلة؟ يكذب. هل يسرحونه إذا ما رد بالإيجاب عن كل الأسئلة؟ إنه يشك في ذلك. كان جسده منتفخا بالكامل ولكن أسوأ شيء بالنسبة له هو حقيقة أن الغموض مازال يكتنف هذه القضية.

- أنت نجوروغي.

- ن ع م.

- هل حلفت اليمين؟

كل العيون عليه. تردد نغروغي للحظة ولاحظ أن السيد هولاندس حاضر. صاحب العينان الرماديتان استغل فترة التردد وقال:

- مارك أخبرنا الحقيقة، إذا قلت الحقيقة فسوف ندعك تذهب.

الألم الذي يعتصر جسده قد يجبره على قول نعم. ولكنه غريزيا قال لا وتراجع بضع خطوات إلى الخلف ناحية الباب، و لم يتحرك ناحيته أحد.

سأل السيد هولاندس لأول مرة منذ تواجده هنا:

- من قتل جاكوبو؟

ارتج جسد نجوروغي بالكامل وظن أنه موشك على التقيؤ.

- قُتل؟

همس بصوت خافت غير مصدق أبدًا. انتابته رغبة عارمة في معرفة إذا كانت مويهاكي آمنة.

نسي للحظة أنه يخاطب أعداءه، الرجال البيض يراقبونه عن كثب.

- نعم، قُتل.

- من قتله؟

- سوف تخبرنا أنت بذلك.

- أنا يا سيدي؟ ولكن...

- نعم، ستخبرنا.
نهض السيد هولاندس واقترب من نجوروغي. كان منظره مرعبا. قال له:
- سأريك!
أمسك بعضو نجوروغي وضغط عليه قليلا بكماشة.
- سوف تصبح مخصيا مثل والدك.
صرخ نجوروغي.
- أخبرني من أرسلك لتقصي المعلومات من منزل جاكوبو؟
لم يتمكن نجوروغي من سماع أي شيء. كان الألم حادا. مازال الرجل يواصل حديثه. وكلما سأل سؤالا ضغط بشدة أكثر.
- أنت تعرف أن والدك قال إنه قتل جاكوبو.
ظل نجوروغي يصرخ والسيد هولاندس يراقبه، ثم رفع نجوروغي عينيه ويديه كما لو أنه يتضرع بالدعاء قبل أن يضعف وينهار على الأرض. نظر السيد هولاندس إلى الصبي ثم إلى الضابطين وخرج. صاحب اللحية الحمراء والآخر ذو العينان الرماديتان ضحكا باحتقار شديد.
لم يمس نجوروغي مرة أخرى، وحين تعافى بعد بضعة أيام، أُطلق سراحه مع والدتيه.

الكوخ الذي وُضع فيه كان مظلمًا. لم يستطِع نغوثو أن يميز فيه الليل من النهار. الظلام والنور صارا يمثلان له شيئا واحدا، والوقت ليس إلا تعاقب العدم. حاول أن ينام على أحد جنبيه ولكن ردفه فقط كان سليما. ولذلك بقي على وضعية واحدة كل يوم. لكن النوم لا يأتيه فيخفف عنه. أراد نسيان حياته لأنه كان واعيا بفشله فيما مضى من حياته، إدراكه أنه فشل

في رعاية أبناءه لازمَه على الدوام. حتى قبل أن تصيبه هذه الكارثة أصبحت الحياة بالنسبة له بلا معنى. فرَّق بين ما كانه وبين ما يمثل له قيمة. وعلى الرغم من ألمه لم يندم على موت جاكوبو. في الحقيقة إنه شعر بالامتنان حالما قتل جاكوبو، كان هذا فعل يمثل عدالة الرب. مشى منتصبا ليوم أو يومين حتى سمع لاحقا نبأ اعتقال ابنه كاماو في قضية القتل هذه. وظل محتارا ليوم ونصف، ولكن مع حلول الليل عرف ما عليه فعله. يقول الجيكويو[9]: "لا تترك الضبع ينتصر مرتين".

لكن ما إن خالفَ الرجل الأبيض القانون القبلي وأصر أن: "السن بالسن" كان من الأفضل لنغوثو أن يقدم سنه القديم الذي فشل في عض أي شيء. لكن نغوثو لم يعرف من أين جاء بالشجاعة للدخول إلى مكتب ضابط المقاطعة والاعتراف بأنه قتل جاكوبو. كان اعترافا صادما للقرية بأكملها. لعدة أيام تعرض نغوثو للتعذيب بكل الطرق ومع ذلك لم يعترف بأي شيء آخر حول حقيقة قتل جاكوبو.

كان السيد هولاندس، مثله كمثل الموظفين الحكوميين والرجال البيض، قد اختار أن يطبق القانون بنفسه. كان مصمما على انتزاع كل المعلومات من الرجل. لذا تعرض نغوثو للضرب يوما بعد يوم، كان السيد هولاندس عازم على إذلاله والحط من قَدْرِه. نغوثو الذي عمل معه وأحبط إرادته لن يهرب منه الآن. لأن نغوثو أصبح بالنسبة له الآن رمز الشر الذي يقف في طريقه. كاد أن يجن حين أصبح نغوثو مصدر قلقه. حتى الحراس الذين يعملون معه خافوا أن يكونوا حاضرين أثناء استجواب ضابط المقاطعة لهذا الرجل. لكن نغوثو تمسك بأقواله.

9 أكبر مجموعة قبلية في كينيا. (المترجمة).

لطالما كان نجوروغي حالمًا وصاحب بصيرة، يواسي نفسه بمواجهة صعوبات اللحظة الحالية، وبالتطلع ليوم أفضل قادم. قبل أن يبدأ المدرسة أعير لعم بعيد لمساعدته في رعاية الماشية. كانت الماشية تزعجه بشدّة لكنه بدلا من البكاء مثل الأطفال الآخرين جلس تحت شجرة وتمنى لو كان في المدرسة. لأن من شأن هذا الأمر أن ينهي هذه المشاكل. ولساعة ظل يتخيل نفسه يكبر في المدرسة. وفي هذه الأثناء أكلت الماشية جزءا كبيرا من العشب، لذا أرسله عمه إلى منزله على الفور. كل تلك التجارب عبرت في ذهن نجوروغي كصدمات ليتبين له عالما مختلفا عن الذي كان يعتقد أنه يعيشه، وبدت تلك المشاكل وكأن لا نهاية لها ولا حل. في البداية كان لها تأثير مخدر فبدا أنه لا يشعر بشيء، كل ما يعرفه الآن أن والده وأخاه الوحيد في مأزق صعب، وهو نفسه ليس في المدرسة. ولكن حتى حين يصفى ذهنه يعاوده الخوف القديم وينقض عليه. عائلته على وشك الانهيار وهو عاجز عن إيقاف ذلك. لذلك لم يرغب في التفكير بأن والده أمكنه أن يرتكب جريمة قتل. حتى أنه لم يتطرق لهذا الموضوع مع نيوكابي أو نيري. وربما فهمتاه لذا لم تحاولا فرض الحديث عليه بهذا الأمر. إلا في ذات مساء حين أطفئت كل الشعلات وخمدت الأصوات في القرية حاولت والدته التحدث إليه.

- نجوروغي.

كان صوتها لا يشبهها.

- نعم يا أمي.

كان يخشى مما ستقوله، حبس أنفاسه قليلا.

لكنها لم تستطِع الاستمرار. سمع صوت أنفاسها المتلاحقة كما لو أنها تحاول دون جدوى كبت نحيبها، حرر نجوروغي أنفاسه وشعر بارتياح مؤلم.

مع ذلك لم يستطِع طوال الليل أن يمنع نفسه من التفكير. صورة القائد المقتول مثلت في ذهنه كما رآه في منزله آخر مرة، كل شيء وكل شخص لديه تصور عن القائد، وهذا التصور يتمثل بالنسبة إليه في سرقة الانتصار بعدما فُتح باب النجاح. مرة واحدة فقط فكر في مويهاكي. كانت تلك الليلة التي حاولت فيها والدته أن تفاتحه في أمر ما لكنه أحس بالذنب لتفكيره بها. شعر بأن علاقته بها هي ما سبَّب سوء الحظ بشكل أو آخر. وأراد أن يصيح لوالدته في الليل: أنا من سبب كل هذا لكِ. كره نفسه دون أن يعرف السبب وكره القائد أكثر فأكثر. وبعد حين أصبح لديه شعور صعب الاحتمال لدرجة أنه غادر المنزل ذات ليلة. كانت ليلة هادئة والجميع نائمون. تساءل نجوروغي بعد فترة طويلة من أين واتته تلك الشجاعة ليمشي نحو المنزل القديم للقائد. قابضًا كفه وكأنه يستعد للقتال، شبح القائد كان حاضرًا طوال الطريق. وتبعه لأنه أراد أن يضع حدا لهذا الاضطهاد. يود أن ينتقم من الرئيس ويوجه ضربة لأسرته. ولكن عندما وصل إلى البيت المهجور تحول الشبح إلى مويهاكي. حاول ضربها ولكنه أدرك أنه أراد معانقتها والهرب معها من هذه الكارثة. كانت هي أمله الوحيد. ثم استيقظ نجوروغي مما اعتقد أنه حلم، سمع صوت خطوات خلف السياج المحيط بالمنزل، نسي أن المنزل المهجور مازال خاضعا للحراسة. تراجع بهدوء في الصباح. لم يرد أن ينظر لأمه وجها لوجه، بالنسبة له حقيقة موقفه كانت تخيفه. وفي ذلك اليوم انتحب خائفًا وشاعرًا بالخطيئة، فلم يتلُ صلواته.

16

جلست نيوكابي ونيري في زاوية الكوخ. نجوروغي يرى دموعهما تجري على خديهما، ما أحزنه. لقد قيل له في صغره إذا رأيت امرأة تبكي على رجل مريض فهذا يعني ألا أمل في شفائه. حتى عندما نظر في وجه والده المشوه لم يمتلك القوة لتهدئة أو وقْف بكاء المرأتين. للمرة الأولى يواجه نجوروغي معضلة لا يملك الغد حلًا لها. هذا الإدراك جعله يشعر بالضعف ويرى الأزمة بصورة مختلفة. جاهد نغوثو للنهوض على جانب واحد ولأول مرة فتح عينيه، سرعان ما تحركت نيوكابي ونيري، اقتربتا من السرير، جال نغوثو ببصره في الكوخ ثم نظر إلى كل واحدة منهما، نيري أولا. حاول أن يفتح فمه ليتحدث ولكن دمعة تدحرجت على خده، أراد أن يمسحها لكنه لم يستطع رفع يده، ترك الدمعة تجري طليقة وتبعتها دمعتان. أدار نغوثو عينيه لتستقر على نجوروغي، بدا أنه يجاهد ليتذكر ثم بذل جهدا كبيرا ليتحدث:

- أنت هنا...

- نعم يا أبي.

أعاد هذا الأمل إليه، وأحس بأمان بارد عندما رأى أن والده ما زال قويًا. كانت هذه أول الكلمات التي نطق بها نغوثو منذ نقله من معسكر الحراسة قبل اربعة أيام. ظل نجوروغي يتذكر ذلك اليوم طويلا، كان لا بد أن

يساعد رجلان نغوثو على المشي. شوّهتْ وجهه جروح صغيرة وندوب. أنفه مشقوق إلى نصفين وبالكاد يستطيع جر قدميه، ظل فمه وعينيه مطبقين لأربعة أيام.

- أتيت من المدرسة؟

- نعم يا أبي.

- لتراني؟

كذبَ:

- نعم.

- هل ضربوك هناك؟

- لا يا أبي.

- ثم أتيت أنت لتضحك عليَّ، تضحك على والدك؟ لا تقلق، سوف أترك البيت.

- لا لا تقل هذا يا أبي، نحن مدينون لك بكل شيء، يا أبتاه ما الذي يمكننا فعله من دونك؟

عض نجوروغي شفته السفلى، وأكمل نغوثو:

- هل إخوانك مازالوا غائبين عن هنا؟

- سوف يعودون يا أبي.

- هاه... سيأتون في يوم وفاتي لدفني... أين كاماو؟

تردد نجوروغي، تابع نغوثو:

- ربما سيقتلونه. ألم يأخذوه إلى مركز الحراسة؟ لكن لماذا لا يريدون دم رجل عجوز الآن؟ لا تسأل، هل قتلت جاكوبو؟ هل أُطلقت عليه النار؟ لا أعرف. فالرجل لا يدرك ما يفعله حين يقتل. لقد حكمت عليه منذ وقت

طويل وأعدمته! دعه يعود مرة ثانية، لن يجرؤ... أوه، نعم، يريدون دم شباب، انظر هناك. هناك آآه أخذوا موانجي، أليس صغيرا؟

ظل طوال حديثه مثبتًا نظره على نجوروغي.

- أنا سعيد أنك تتعلم. تعلم وتخطى المراحل الدراسية كلها. لن يجرؤون على المساس بك. ومع ذلك تمنيت أن يكون جميع أبنائي هنا. أقصد... ها ها ها! لفعل شيء. ها! ما الذي يجري؟ من يطرق الباب؟ إنني أعلم إنه السيد هولاندس ليحملني المزيد.

كان نغوثو يضحك ببرود، ما جعل الجو متوترا ومتأزما.

بحلول هذا الوقت تسلل الظلام إلى الكوخ. أشعلت نيوكابي الفانوس كما لو أنها تريد طرد الظلام. خدعتها الظلال الغريبة وهي ترفرف على الجدران.

ما هي حياة الرجل حين يُذل إلى هذا الحد؟ فكر نجوروغي، هل يمكن أن يكون هذا الرجل هو أبي الذي أحببته وخفت منه سرا؟ شعر نجوروغي بدوار، انقلب العالم رأسا على عقب. كان نغوثو يتحدث، باستثناء ضحكته، كانت كلماته واضحة وضوحًا مدهشًا.

- غادر بورو بعيدا، وجدني أبًا عديم الفائدة. لكنني كنت أعلم أنهم سيغيرونه. لم يعرفني حينما أتى. ألا ترى؟

أدار نجوروغي رأسه، كان على علم بوجود شخص آخر في الغرفة، كان بورو يقف عند الباب. لقد رآه نجوروغي وهو يدخل، شعره طويل وأشعث. تجنبه نجوروغي لا إراديا، اقترب بورو متعثّرًا كما لو أنه يريد تجنّب الضوء. بينما بقيت الوالدتان متصلبتان في مكانيهما، جثا بورو بجانب السرير الذي يستلقي عليه والده. وفي الحال وقبل أن يتحدث بورو، انكشفت الحقيقة لنجوروغي فانحبست أنفاسه. لم يستطع نغوثو التعرف على بورو، في البداية

كان مترددا، ثم دبت الحياة في عينيه مجددا.

- سامحني يا أبي، لم أكن أعلم، فكرت أن...

أدار بورو رأسه. تكلم بفتور وتلعثم.

- إنه لا شيء ها ها ها ها! أنت أيضا عدت لتضحك عليَّ؟ هل تضحك على والدك؟ لا، ها... أردت لكم الخير. لم أشأ أن تغادروا بعيدا.

- كان عليَّ أن أقاتل.

- أوه هناك، الآن لا تذهب إلى هناك مرة أخرى.

صاح بورو بصوت ضعيف:

- لا أستطيع... لا أستطيع البقاء.

طال تغير ما حالَ نغوثو. عاد كما كان سابقًا؛ رجلا حازما، وقائدا، وسيدا في بيته.

- يجب عليك أن...

- لا يا أبي... أريدك أن تسامحني فقط.

جاهد نغوثو ليجلس على السرير، حاول رفع يده ليضعها على رأس بورو الذي بدا كطفل.

- حسنا، قاتل جيدا، وضع عينيك دائما على مورينجو وروري. حفظكم الرب جميعا. ها! ماذا؟ نجوروغي انظر... انظر إليها، إنها والِدَتُـ...

ما زالت عيناه متوهجتين وهو مستلق على السرير. للحظة حل الصمت في الكوخ، ثم وقف بورو هامسا:

- كان يجب أن آتي باكرا.

خرج مسرعا مبتعدا عن الضوء إلى الظلام. وحينما وجهوا أعينهم إلى نغوثو أدركوا أنه لن يعود أبدا. ولم يبك أحد.

17

في الطريق الوحيد الذي يقع بالقرب من السوق الهندية تختلط أصوات البشر بضوضاء شاحنة عابرة أو سيارة أحيانا. جاء نسوة إلى المتاجر، رأينه وتوقفن فجأة عن الحديث.

- أريد هذا الفستان.

- وهذا ذا اللون الفاقع.

- ألا تبيع؟

يتحدثن في وقت واحد ويصرخن للجهة المقابلة وكأنهن يحدثن شخصا بعيدا، شخص لن يعود أبدا. همست إحداهن لمن بجانبها:

- لا تكوني قاسية على الولد، أنت تعرفين ما مر به.

لكن رفيقتها صاحت بصوت أعلى:

- ألا تسمع؟

نهض نجوروغي. صوته متعب وعيناه ذابلتان. جر قدميه إلى زاوية المتجر وأحضر لهن الفستان الذي أشرن إليه. لم يكن يريد أن ينظر إليهن وجها لوجه، اعتقد أنهن سيرين أحلام طفولته ويضحكن عليه. يجلس الهندي في ركنه يمضغ بعض الفاصوليا الخضراء أو الفول السوداني. كان نجوروغي يشمئز من صوت المضغ. أوه، أتمنى أن يتوقف.

- كم ثمنه؟

- ثلاثة للياردة الواحدة.

- سوف أعطيك اثنين للياردة الواحدة.

يكره نجوروغي أن يُساق على هذا النحو. لقد فقد الرغبة في الصراع، حتى التفاوض في البيع والشراء. لقد أرهقته هذه اللعبة، بدت الحياة أيضا ككذبة كبيرة حيث يتفاوض الناس بقوى لا يمكن للمرء رؤيتها.

- السعر ثابت.

- لا تكذب.

صاحت المرأة ذاتها بسخط شديد:

- لماذا تعاملنا كما لو أننا هنديات؟

جفل نجوروغي من هذا الهجوم، وبينما هو يشاهدهن يخرجن تأوه بداخله، لقد أجبِر على العمل لدى الهنود لحاجته الماسة.

نهض الهندي من ركنه ونادى النساء طالبا منهن العودة. باعهن بسرعة فستانا آخر بنفس النوعية مقابل أربعة شلنات. لم يتحرك نجوروغي، وعندما غادرت النسوة توقفت اثنتان منهن ونظرا إلى نجوروغي بتعاطف. أراد نجوروغي أن يختبئ.

أدرك نجوروغي أنهن - اللاتي اعتقد أنه سيأتي لإنقاذهن - سيتحدثن عنه وعن عائلته.

كان الناس لا يزالون يتحدثون عن هذه القضية بعد مرور خمسة أشهر. فقد كان لتزامن وفاة السيد هولاندس مع وفاة نغوتي في الليلة ذاتها أثر بالغ مقَارنة بالوفيات السابقة. هذه القضية أكثر لفتا للنظر لأن العائلة كلها متورطة فيها. بورو وكاماو يواجهان اتهامات بالقتل. حدث كل ذلك في اليوم

الذي توفي فيه نغوثو. كان السيد هولاندس بمفرده في غرفة الجلوس، ينظر إلى السقف تارة وينقر على الطاولة تارة أخرى، وزجاجة بيرة فارغة مع كأس زجاجي نصف ممتلئ أمامها. عاد السيد هولاندس بتحد ولزم بيته في مزرعته التي تحتضر، لم يستطِع الابتعاد عنها. لأن المزرعة كانت كالمرأة التي تودد إليها فاحتلها. كان عليه أن يظل يراقبها خشية أن يستحوذ عليها شخص آخر. في تلك الليلة ألمّ به الغضب، لم يعرف ما الذي حدث له، رأى شيئا ما في عيني ابن نغوثو. لقد تذكر نفسه وهو صبي منذ زمن بعيد حين كان يجلس خارج منزل والديه ويحلم بالعالم الذي يحتاجه، ليواجه واقع الحياة القاسي في الحرب العالمية الأولى، السيد هولاندس لا يتذكر الآن سوى أن يشرب كي ينسى. وها هو أعاد نعوثو إلى المنزل ميتا أكثر منه حيا، إلا أن سماحه له بالعودة هكذا

لم يحقق للسيد هولاندس ما تمناه، ولم يخلف بداخله سوى الكراهية.

ما جعله يفرج عن نغوثو هو دفتر الملاحظات الذي عُثر عليه أسفل المرحاض حيث أُطلقت النار على جاكوبو. كان الدفتر يحمل اسم بورو. لم يستطع السيد هولاندس أن يفهم في البداية ما فعله نغوثو، لكنه أدرك شيئا فشيئا أن نغوثو كان يكذب من أجل حماية بورو. لكن بورو كان في الغابة؟ واهتدى إلى الحقيقة بتأنٍ.

إلا أن نغوثو كان يعتقد أن من قام بعملية القتل هو كاماو. وأُخذ بذنب انقاذ ابنه، وبلغت كراهية السيد هولاندس لنغوثو درجة عظيمة جعلته يرتجف طوال الليل. كان في حالة سُكِر متلهفا للوصول إلى نغوثو ولكن في الصباح أدرك أنه لا يستطيع أن يفعل ما فكر به.

نظر إلى الباب. كان ينتظر بعض رجال الشرطة والحرس الذين صاحبوه في الدورات الليلية. نهض وبدأ يذرِع الغرفة جيئة وذهابا، لم يعرف لماذا

افتقد زوجته الآن. تساءل عما إذا كان سيحصل الليلة على ذات المرأة السوداء التي أخذها الليلة السابقة. اكتشف أن في النساء السوداوات خير سلوى له. كانت الدوريات الليلية بالنسبة للسيد هولاندس متعة خاصة حيث تشعره بالرِفعة والقوة.

فُتح الباب. لم يقفله السيد هولاندس. نظر إلى ساعته ثم استدار فإذا بمسدس مصوب إلى رأسه:

- إن تحركت سوف تموت.

بدا السيد هولاندس كأنه حيوان محبوس.

- ارفع يديك".

أطاعه. أين كان حراسه المعتادين؟ سمح للحظة التفكير تلك أن تجرده من سلاحه.

- أنا قتلت جاكوبو.

- أعلم.

- لقد خان السود، أنتما معا قتلتما العديد من أبناء البلد، واغتصبتما النساء، وفي النهاية قتلتما والدي، هل لديك ما تقوله دفاعا عن نفسك؟

كان بورو يتكلم بوتيرة ثابتة، لا أثر للكراهية أو الغضب أو الانتصار، ومن دون تعاطف.

- لا شيء.

- الآن تقول لا شيء؟ أنت استوليت على أرض أجدادنا.

- هذه أرضي.

قالها السيد هولاندس كما يقول الرجل: هذه امرأتي.

- أرضك! إذن أيها الكلب الأبيض سوف تموت على أرضك.

ظن السيد هولاندس أنه جنّ، طغى عليه الخوف وحاول التشبث بالحياة بكل قوته. ولكن قبل أن يتمكن من الوصول إلى بورو انطلق الرصاص، تعلم بورو كيف يكون راميًا جيدا خلال الحرب العالمية الثانية، انتصب جذع الرجل الأبيض لبضع ثوان ثم سقط، ركض بورو دون أن يشعر بشيء، ولا حتى شعوره بالانتصار لأنه قام بواجبه. في الخارج أطلق النار على الحراس بيأس، لكنهم وقفوا في طريقه واستسلم في النهاية. الآن وللمرة الأولى شعر بالبهجة، قال لهم:

- لقد مات.

جاء الأطفال إلى المتجر قادمين من المدرسة. رأى نجوروغي وجوههم تنضح بالأمل. لقد كان مثلهم حينما كانت نظرته للعالم كمكان يرتقي فيه المرء المتعلم إلى السلطة والمجد. ولم يخطر بباله أنه سيعمل مع هندي. ثم فجأة تخيل نجوروغي نفسه كرجل عجوز، عجوز يبلغ من العمر عشرين عاما. لقد أفزع الأطفال بسبب تحديقه الخاوي. صرخوا فارين حتى قبل أن يتمكن من التنبه لفعل أي شيء. نهض الهندي من ركنه وقال له:

- أنت مطرود.

لم يكن نجوروغي قد أكمل شهرا واحدًا. كان في حاجة ماسة للمال من أجل أهله. قال نجوروغي:

- حسنا.

سار مجهدا في طريقه يتساءل كيف سينقل الخبر إلى نيوكابي ونيري، وتمنى لو يعود طفلا لمرة واحدة، وترافقه مويهاكي كي يحكي لها عن كل مشاكله. أحس أنه يحتاج رؤيتها.

18

في يوم السبت كانت مويهاكي تجلس خارج منزلها الجديد في معسكر الحراسة والتوتر بادٍ على وجهها. وقفت وتوارت خلف المنزل، أخرجت مذكرة صغيرة وقرأت مرة ثانية، إنها مناشدة قوية حقًا، ولكن بعد أن قبلت لقاءه شعرت بالتردد والذنب، وتساءلت إن كان لديه كلام كثير يود إخبارها به، لقد أقسمت أن لا تقابل نجوروغي مرة أخرى عندما علمت بالطريقة البشعة التي قُتل بها والدها، لأنها شعرت بأن نجوروغي خانها. إذا كان ما قالته لها والدتها صحيحا فلن يكون لها أي علاقة بهذا الصبي. لقد علمت بوفاة والدها أثناء تواجدها في المدرسة، نقلت لها المديرة الخبر، لبعض الوقت لم تكن قادرة على تصديق أن ما قالته المعلمة يمكن أن يكون له علاقة بوالدها، حتى عندما علمت أنه بلا شك ميت لم تستطع البكاء. في تلك الليلة فكرت بما حدث ولم تشعر بأي شيء، لم تشعر بأي ألم، ولكن حينما كانت في طريقها إلى المنزل تصورت الحدث كاملا بجلاء. إن رعب الكارثة التي أصابت كينيا عاد إليها بصورة جديدة وبكت كما لم تبك من قبل. الآن فوجئت بنفسها وهي تذهب للقاء أحد أفراد العائلة الذين حرموها من والدها، لكنها أرادت مقابلته لأنه في ذروة أزمة عائلتها كانت أكثر الكلمات التي تريحها هي الكلمات التي قالها لها نجوروغي. كررتها لوالدتها

بحزم: "ستشرق الشمس غدا" لم تفقد إيمانها بالرب، بل وضعت كل ثقتها فيه على أمل أن يجمعها بوالدها في الجنة.

وصل نجوروغي إلى المكان وكان مسرورا لقبولها لقاءه، لأن الخوف من تجاهلها له هو ما جعله يبتعد عنها طيلة الأشهر الماضية. لم يكن يعرف ما الذي يقوله لها، معرفته بأن شقيقه قتل جاكوبو يثقل كاهله. لكنها الآن تعني له أكثر من أي شيء آخر. كان الوقت متأخرا بعد الظهر حين وصل المكان، وصلت مويهاكي قبله، إنه قريب من المكان الذي اعتادا أن يلتقيان فيه من قبل. بدت له نحيلة وتحولت نعومتها إلى صلابة وكأنها أصبحت امرأة فجأة. نظرت مويهاكي إلى نجوروغي ورأت في عينيه الخيبة واليأس والحيرة. لكنها صممت على عدم إظهار الشفقة نحوه. لذا اكتفت بالنظر إليه، ونظر نجوروغي إلى أسفل للحظة ثم وجه نظره إلى السهل، كان الصمت بينهما محرجا. لم يعرف كيف يبدأ وماذا يقول.

قالت مويهاكي:

- لقد جئت...

- ألا يمكننا الجلوس للتحدث.

- يمكنك أن تقول ما تريد ونحن واقِفَين.

ومع ذلك حين ذهب وجلس تبعته وجلست بعيدا عنه، أخذ جزءا من عصا جافة وكسره، نظرت إليه بذهول ثم فجأة سالت دمعة على خدها فركتها بسرعه ولم يرها.

- مويهاكي، من الغريب أن نلتقي أنا وأنتِ في هذه الظروف (رفع عينيه وواجَهها بجرأة) لقد عرفتك طيلة تلك السنوات الماضية حين كنت صغيرا وأحمق، وفكرت فيما يمكنني فعله لعائلتي وقريتي وبلادي. وفقدت الآن

كل شيء؛ دراستي وإيماني وعائلتي. وأدركت الآن أكثر من أي وقت مضى ما كنتِ تعنين لي وكيف اهتممتِ بتقدمي، إن كل هذا يجعل الأمر مؤلما أكثر مما فعله أقاربي بكِ. أنا وحيد ومنسي، لذلك أشعر أن الذنب ذنبي. رغبت في مقابلتك كي أقول لك أنا آسف.

- لا تكذب عليَّ يا نجوروغي، بالتأكيد كان بإمكانك أن ترسل لي تحذيرا.

- قلت لك أنني مذنب، ولكن يا إلهي... لم أكن أعلم عن مقتل والدك أكثر مما تعلمين أنتِ.

- هل تعني بقولك هذا أنك لم تكن تعرف؟

كانت تعلم جيدا أنها هي من طلبت منه مرافقتها إلى منزلهم. التزمت الصمت وأشاحت بوجهها بعيدا.

- مويهاكي، لا يمكنني أن أدعي بأنني سأحذرك لو كنت علمت بذلك، ولكنني أؤكد لك أنني متأسف للغاية، أرجوك تقبلي ما أخبرك به لأنني أحبك.

أخيرا قالها.

إنها الآن أمله الوحيد، وحتي حين بقيت صامتة لوقت طويل لم يستدر لينظر إليها.

- نجوروغي.

أدار رأسه قليلا حينما نادته، رقّت عيناها، كاد أن ينهار.

- مويهاكي، أنت أعز ما بقي لدي، أشعر برابطة تربطني بك ويمكن أن أعتمد عليك بالكامل، لم يبق لي أمل سواكِ. وأن ما توقعت أن يحدث لي في المستقبل كان مجرد وهم.

استمر في حديثه بصوت هادئ وعيناها تنظران إليه بشرود، اعتقد نجوروغي أنها تتجاهله، فأشاح ببصره بعيدا، عندها تلفظت باسمه مجددا

ورأى الدموع في عينيها فعادت إليه روحه.

- أنا اعتذر لأنني ظننت فيك سوءًا.

قال وهو يقترب منها:

- لا يا مويهاكي، يجب أن أتحمل الذنب ولك كامل الحق لتكرهينني.

أمسك بيدها اليسرى ولم تستطع مقاومته كما لم تقاوم الدموع التي انهمرت على خديها. حاولت التحدث ولكنها شعرت بغصة في حلقها. جاهدت لتتحدث، يتوجب عليها ألا تفقد توازنها، ومع ذلك بدا الأمر ميؤسا منه، ودت لو يمسك بيدها ويقودها. ونطقت بشق الأنفس أخيرا:

- لا، لا تفعل.

كانت تعلم أنها يجب أن توقفه قبل أن يتمادى ومع ذلك شعرت بانعدام قدرتها على بذل أي مجهود، ولامت نفسها لمجيئها إلى هنا. ظل نجوروغي يحدثها هامسا ويناشدها بكل قوته:

- عزيزتي مويهاكي، أنا أحبكِ، أنقذيني إن أردتِ، أنا تائه من دونك.

تمنت أن تهوي بين ذراعيه وتشعر بقوة الرجل تحيط جسدها الضعيف. رغبت في العودة إلى طفولتها لتكبر معه مرة أخرى، لكنها لم تعد طفلة.

- نعم، يمكننا الابتعاد عن هنا كما اقترحتِ عندما...

بكت في عذاب يائس وقاطعته:

- لا، لا...

- يجب أن تخلصني مما أنا فيه. أرجوك يا نجوروغي، أنا أحبك...

غطت وجهها بكفيها وهي تذرف الدمع وصدرها يرتفع ويهبط. أحس نجوروغي بمتعة حلوة، مسد شعرها الداكن بارتباك.

- نعم، يمكننا الذهاب إلى أوغندا والعيش هناك.

نطقت بصعوبة:

- لا لا.

سألها لأنه لم يفهم ما تعنيه:

- لكن لماذا؟

قالت بينما تبكي:

- ألا ترى أن ما تقترحه مخرج سهل للغاية؟ نحن لم نعد أطفالا.

- لهذا السبب يجب أن نذهب بعيدا عن كينيا، لا مكان لنا فيها، أليس من الصبيانية أن نبقى في حفرة ونحن قادرين على الخروج منها؟

بكت بيأس:

- لكننا لا نستطيع... لا نستطيع...

لقد وضعته في حيرة مرة أخرى. مويهاكي الطفلة كانت أكثر جرأة، أدركت تردده وألّحت عليه بقوة:

- من الأفضل أن ننتظر، أنت قلت لي بأن الشمس ستشرق غدا، أظن أنك على حق.

نظر إلى دموعها وأراد أن يمسحها، تجلس هناك، كشجرة وحيدة تتحدى الظلام، تحاول غرس حياة جديدة فيه لكنه لا يريد أن يعيش الحياة بهذه الطريقة. أحس بالخيانة.

- كل ذلك كان حلما، علينا أن نعيش يومنا.

- نعم ولكن علينا واجبات، واجبنا تجاه الآخرين هو أكبر مسئولياتنا كرجال ونساء بالغين.

صاح بمرارة:

- واجب! واجب!

- نعم لديَّ واجب، على الأقل تجاه أمي، أرجوك يا عزيزي نجوروغي لا يمكننا تركها في مثل هذا الوقت. لا ...نجوروغي دعنا ننتظر يوما جديدا.

تغلبتْ عليه، عرفت الآن أنها لن تخضع ولكن صعب ذلك عليها، وإذا ما تركته سوف تستمر بالنحيب والبكاء يعصر قلبها. بدأت الشمس تغيب عن الأفق.

وأفل الأمل الأخير لنجوروغي. ولأول مره أدرك أنه وحيد في هذا العالم دون شخص يسنده. الأرض تدور وتدور وكل شيء يتراءى له كالضباب ثم فجأة سقط على الأرض صائحا:

- مويهاكي... مويهاكي.

في يوم الأحد ترك نجوروغي والدتيه نيوكابي ونيري وخرج يتجول وحده، شاهدته نيوكابي وهو يخرج لكن لم تشأ أن تسأله إلى أين هو ذاهب. لم تتحدث نيوكابي ونيري عن خروجه لأنهما خائفتين. سرواله يرفرف في الهواء، كان الطريق مألوفا ولكنه غريب وطويل، ونجوروغي يجر قدميه جرا. التقى بنساء قادمات من أماكن مختلفة عائدات إلى منازلهن قبل حلول الظلام. تجنب نجوروغي الاحتكاك بهن. تجنب نظراتهن لأنه لا يريد تعاطفهن أو شفقتهن. وهن لن يرين سوى اليأس في عينيه. واستمر يقول: "كنت سأفعل ذلك... كنت سأفعل ذلك!" لكنه أراد أن يرى المرأتين وهما تنامان تحت سقف واحد لآخر مرة. تذكر موت نغوثو، وبورو سوف يُعدَم قريبا بينما كامو سيظل في السجن مدى الحياة. ولا يعرف نجوروغي ماذا سيحدث لكوري في الحجز، لربما سيُقتل مثلما قُتل أولئك الذين تعرضوا للضرب حتى الموت في معسكر هولا. يا إلهي! ولكن لماذا يدعو الرب الآن؟

لم يعد الرب يعني له سوى القليل، فقد نجوروغي الآن الثقة في كل الأشياء التي آمن بها سابقا، مثل الثروة والسلطة والتعليم والدين، حتى الحب أمله الأخير انتهى.

الأرض آخذة في الاتساع كاشفة عن غرابتها الواضحة للعين. هناك كثيرين الآن تجاوزوا الأرض والشمس والقمر ونغانغا والحلاق وكياري... وغيرهم كثر.

قاده الدرب في النهاية إلى الطريق الفسيح فسلكه.

مازال يسمع صوتا يحثه: "هيا!" بدأ يسرع خطواته وكأنما يستعجل ساعات النهار لتنتهي. الليل يرحب به الآن، الصوت صار أوضح: "استمر!" لكنه قال: "انتظر مجيء الليل".

وصل إلى منعطف الطريق ولا إراديًّا رفع رأسه لأعلى، هناك تركته بعد أن أعلنت حبها له. كان السهل على يمينه، انتقل من الطريق الذي لا بداية له ولا نهاية وذهب إلى المنحدر الممتد من الطريق إلى السهل. جلس على صخره، وأخرج سلكا مطويا بعناية من جيبه، شعر بسرور ما لأنه يحمله. لأول مره ضحك وحيدا وانتظر الظلام ليأتي ويغطيه. إنه يعرف هذه الشجرة جيدا لقد جاء عندها عدة مرات لأن الصوت الذي يحدثه كثيرا بعد وفاة والده موجود هنا. الشيء الوحيد الذي قيده هو الأمل في أن يجد عزاءه في مويهاكي. كان قد جهّز الحبل قبل ذلك.

- نجوروغي.

سمع الصوت فتوقف، ضحك على نفسه ضحكًا هستيريًّا، كان الحبل معلقا على الشجرة ومازال بين يديه. سمع صوتا مليئا بالقلق مرة ثانية:

- نجوروغي!

هذه المرة كان الصوت واضحا، وارتعد حين عرف صاحبة الصوت. كانت والدته تبحث عنه. لبعض الوقت وقف مترددا. ثم خذلته شجاعته. ذهب نحوها مرتجفا خاشيا مقابلتها. رأى الشمعة التي تحملها وذهب نحوها متعثرا، كانت شعلة من الخشب حملتها لتضيء لها الطريق.

- أمي.

شعر بارتياح غريب.

- نجوروغي، أنا هنا.

نيوكابي تمسكت به ولم تسأله عن أي شيء.

أمرته بصوت خافت:

- لنعد إلى البيت.

تبعها ولم يقل شيئا، وأدرك أنه خذلها وكلمات والده الأخيرة عندما طلب منه الاعتناء بالمرأتين، وخذل صوت مويهاكي وهي تطلب منه أن ينتظر يوما جديدا. التقيا بنيري التي تبعت نيوكابي للبحث عن الابن بالرغم من حظر التجول. تجنب نجوروغي التحدث مع نيري أيضا، لكنه شعر بالذنب، ذنب الرجل الذي تخلى عن مسئوليته التي كان يعد نفسه لها منذ الطفولة. حينما اقتربوا من المنزل تذكر ما حدث له، جاءه الصوت مرة أخرى متهما إياه:

- أنت جبان، كنت دائما جبان، لماذا لم تفعل ذلك؟

ثم قال هو بصوت عالي:

- لماذا لم تفعل ذلك؟

فأجاب الصوت:

- لأنك جبان.

أجاب هامسا لنفسه:

- أنا جبان...

وركض باتجاه البيت فاتحا الباب لوالدتيه.

نورثكوت هول، يوليو 1962



نغوغي وا ثيونغو (أو جيمس نغوغي) ولد في كينيا عام 1938وهو أحد رواد الأدب الأفريقي. حصل على جوائز عدة منها: جائزة لوتس للآداب 1973، جائزة نونيو العالمية للأدب (إيطاليا) 2001، جائزة دائرة نقاد الكتب الوطنية (أمريكا) 2012، القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر الدولية عام 2009، وجائزة بارك كيونغ-ني عام 2016. من أعماله: لا تبك أيها الطفل (1964)، بتلات الدم (1977)، وشيطان على الصليب (1982).

أمينة عبد الوهاب الحسن، من مواليد مدينة الأحساء في السعودية. حاصلة على درجة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية. صدرت لها المجموعة القصصية «سرير يتسع» عام 2014، وترجمت إلى العربية رواية جيم شيبارد «سِفر هارون» الصادرة عام 2018.

لا تبكِ أيّها الطفل

لا تبك أيها الطفل رواية عن صبي اسمه نجوروغي نشأ في زمن تمرد الماوماو الذي اجتاح كينيا في الخمسينيات وأوائل الستينيات كحركة سرية لمقاومة الاضطهاد الاستعماري، وعن سعي نجوروغي للتعلم وحب مويهاكي ابنة معذّب عائلته. إن قضية الماو ماو انتهت وأصبحت من الماضي، لكن رواية لا تبك أيها الطفل تابعَتها بغض النظر عن سياقها التاريخي، ثم حصلت كينيا على استقلالها وتناوب على حكمها العديد من القادة الأفارقة، ولكن شيئا لا يزال خالدا: قصة حياة نجوروغي. تتغير الكتب عبر الزمن بطريقة رائعة إذا ما كتبت بحبر الفن، إنها دلالة على مدى انجاز نغوغي ككاتب بإعادة تكوين فكر وأجواء وتوترات وحالة عصر الماو ماو. كما أنها كتبت في وقتها الخاص، حاملة القوة التي تجعلنا نشعر بالوقائع الثابتة: آمال الشباب، واستحالة العالم، والطريقة التي تؤثر فيها السياسة على حياتنا الحميمية، وضرورة المقاومة وقيمة العائلة. ولو لم يكتب نغوغي عملا أدبيا سوى لا تبك أيها الطفل لتبوّأ مكانة متميزة في الأدب الأفريقي. إنه ينتمي إلى الروائيين الاحتجاجيين. في الواقع إن جومو كينياتا، الذي هو موسى الأسود في الرواية، هو الذي أدخل نغوغي السجن عام 1977 لمدة عام من الحبس الانفرادي.

Cover Disign: Hassan Almohtasib



